تعريف بالكتاب

بقلم

المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وجد الإنسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرّف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص، وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل، وظهر ضعفه وتضاءل غروره. ونبىّ الإسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود. فقد جدّ العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلّت قدرته فى عقله وخُلقه وعلمه. ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة؛ وأمامهم جهاد طويل، وبُعد شاسع، وطريق لا نهاية له.

والنبوّة هبة الله لا تُنال بالكسب؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادر على حملها. الله أعلم حيث يجعل رسالته. ومحمد ﷺ أعِدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنه، وأعِدّ لأن يحمل رسالة أكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم، وتُبدّل الأرض غير الأرض والسموات.

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوّة واختيارهم لها. وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوّة لا مرّد لها. غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم؛ فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحيانًا.

أُمر محمد ﷺ بأن يبلغ عن ربه، ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة، وتُرك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته، كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء. وجاء الوحى مفصلًا قاطعًا فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظُم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول. فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبى ﷺ قبل الوحى، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحى. فقد صار مبلغًا عن ربه داعيًا إليه، حاميًا لتلك الدعوة ولحرّية الداعين، مدافعًا عنهم؛ وأصبح حاكم الأمة الإسلامية وقائدَ حربها ومفتيها وقاضيها ومنظِّم جميع الصِّلات والروابط فيها، وبينها وبين غيرها من الأمم. وقد أقام العدلَ فى ذلك كله، وألّف بين أمم وطوائف ما كان العقل

يسيغ إمكان التأليف بينها؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوّة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل، وتفجّرت منه ينابيع العلم والمعرفة، وينابيع البلاغة التى يطأطئ البلغاء رؤوسهم أمامها إجلالاً وهيبة؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضىّ من الله ومن المسلمين.

وكل هذه النواحى تستحق الدرس والتمحيص، وليس فى مقدور شخص واحد أن يفيها حقها، بل ليس فى مكنة شخص واحد أن يُوفى على الغاية فى ناحية من هذه النواحى.

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله، كسائر العظماء، أضيف إليها ما ليس منها، إما عن حب وهوى وحسن قصد، وإما عن سوء قصد وحقد. غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئًا كثيرًا ضمه الوحى الإلهى وضمن حفظه القرآن المطهر، وشيئًا كثيرًا رُوى على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين، وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة، وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها، وأن تحلل التحليل العلمى النزيه، ملاحظًا فى ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعادات.

وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه «حياة محمد» فى سيرة محمد ﷺ، ويسّر لى أن أطّلع على جزء منه قبل إتمام طبعه. والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية، غنىٌّ بآثاره فيها عن التعريف. وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة، ومكّنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منهما على حظ عظيم، وناظر وجادل وهجم ودافع فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفى السياسة وغيرها، فنضج عقله وكمل علمه واتّسع اطلاعه وامتدّ أفقه، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوىّ وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه. بهذه الثقافة وهذه القوّة نسج الدكتور كتابه وقال فى مقدّمته: «لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد؛ بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوىّ. فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثًا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته».

أمّا أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لاريب فيه، فقد جعل العقل حكمًا والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذم المقلّدين، وأنّب من يتبع الظن وقال: «إن الظَّنَّ لا يُغنِي مِنَ الحقِّ

شيئًا» وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها. ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا فى القرآن، وهى معجزة عقلية. وما أبدع قول البوصيرى:

لم يمتحنّا بما تعيا العقول به حِرصًا علينا، فلم نَرْتَبْ ولم نَهِم

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه. وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا. ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين. انظر كتب الكلام ترهم يقرّرون أن أوّل واجب على المكلف معرفة الله، فيقول آخرون: لا، إن أوّل واجب هو الشك. ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان. وهو وإن كان نوعًا من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدّماته قطعية حسية، أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف فى المنطق. وكل خطأ يتسرّب إلى إحدى المقدّمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها. وقد قرّر فى أحد كتبه أنه جرّد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدّر، ورتب ووازن، وقرّب وباعد، وعرض الأدلة وهذبها وحللها؛ ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء. وقد فعل هذا ليجافى التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان، ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه.

وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد، ثم البحث والنظر. فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة. فليس هناك جديد عندنا، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيتْ فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق، وبعد أن نشأ التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناضج وأفادوا منها فى العلم والعمل، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة.

هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديمًا وحديثًا. والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير. ولا يتفاوت الناس كثيرًا فى معرفة القانون، ولكنهم يتفاوتون جدّ التفاوت فى تطبيق القانون.

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة؛ لكن الإنسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله، وأحمال البيئة فى البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات، كيف يسهل عليه تطبيق القانون؟ هذا هو موضع الداء قديمًا وحديثًا وهو سبب تعدّد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر، ومن أمة إلى أمة. والفلسفة والآداب تبدّل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدّل النساء أزياءها، وقلَّ أن تجد فيها شيئًا يصونه حرز أو يقيه حصن؛ بل سرى التبدُّل إلى قواعد العلم التى لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعًا للشك. ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها. والآراء فى

الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفى التغذية لا تزال مطية للتبدّل والتحول. وهكذا إذا أنعمنا النظر لا نجد أمانًا لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافرًا فيه. ولكن ما نسبة هذه الأشياء التى يتوافر فيها البرهان إلى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام وتمجه الأذهان المريضة، وتفرضه السياسة؛ ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة فى مخالفة غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء! ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يومًا من الأيام إلى الدخول فى حمى الحق وحصن اليقين؛ وهو الوحى الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة.

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه.

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود. وأنا أقرّر أيضًا أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرّب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضًا مبهمًا، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فى الآفاق وفى أَنفُسِهِمْ حتَّى يتبيَّن لَهم أَنَّهُ الحقُّ، أَوَ لم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه على كلِّ شىءٍ شَهِيدٌ﴾.

والكهربا وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوّة وتحوّل القوة إلى مادة. وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئًا كثيرًا مما كانوا فيه يختلفون، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طىّ الأبعاد، وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشىء طريف.

ويطول بى القول إذا أنا عرضت لما فى كتاب الدكتور هيكل من حسنات، وحسبى أن أنبه إلى تلك الحسنات إجمالاً، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة، ويهديه المنطق الدقيق وتسعده الفطرة الصادقة، وسيرون أن الدكتور كان مخلصًا الإخلاص كله للحقيقة، عامر القلب بما فى الوحى المحمدى من هدى ونور، وبما فى سيرة النبى ﷺ من جمال وجلال وعظمة وعبرة، مطمئنًا كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة، وينشلهم من ظلمة المادّة ويبصّرهم بنور الإيمان، ويوجههم إلى النور الإلهى، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شىء، وعظمة مجده الذى تسبِّح به السموات والأرض وكل شىء فيهما، وعزّته التى تتضاءل أمامها الموجودات. ألا تراه يقول: «وأذهب أبعد مما تقدّم فأقول: إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى نلتمسها. وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الإسلام ورسوله وتلتمس هذا النور فى «ثيوزوفية» الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى

خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق».

«فالتفكير الإسلامى على أنه تفكير علمى على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، هو من هذه الناحية واقعى بحت، ينقلب تفكيرًا ذاتيًا حين يتصل الأمر بصلات الإنسان بالكون وخالق الكون». ويقول: «لكن طلائع القضاء على الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه. فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره، والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كأثر من آثاره».

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع؛ فإن ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق، ومن عناية علمائه بدراسة الإسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأممه قديمًا وحديثًا، ومن إنصاف بعضهم للنبى ﷺ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الإسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعًا عنه، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله، وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التى نشأ فيها، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه. وقد بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء!

وإذا كان النبى ﷺ خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هاد مرشد، وكان دينه أكمل دين بنص الوحى القاطع، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن، ولابد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب.

وقد وفّق الدكتور فى تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض، فجاء كتابه عقدًا منضدًا وسلسلة متينة محكمة الحلقات. وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانًا قويًا واضحًا يجعل القارئ مطمئن النفس رضىّ القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين، فيملك عليه أمره، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث.

وفى الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب فى بيان أغراضها.

وأختم كلمتى هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه: «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل علىَّ غضبك، أو تحلّ بى سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوّة إلا بالله».

١٥ من فبراير ١٩٣٥ — **محمد مصطفى المراغى**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

تقديم الكتاب

محمد عليه الصلاة والسلام:

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرّات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتزّ منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين. وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتزّ ملايين القلوب إلى يوم الدين. فإذا كان الفجر من كل يوم وتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذّن بالناس أنِ الصلاةُ خيرٌ من النوم، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين فى مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجلِّيين فى مطلع كل نهار. وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذّن بالناس لصلاة الظهر، ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء. وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمدًا عبد الله ونبيَّه ورسوله فى ضراعة وخشية وإنابة، وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تَجِفَ قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه. كذلك كانوا وكذلك سيكونون حتى يُظهر الله الدين القَيم ويتم نعمته على الناس أجمعين.

الإمبراطورية الإسلامية الأولى:

ولم يك محمد ﷺ فى حاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه وينتشر فى الخافقين لواؤه، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته، ويومئذ وضع هو خُطَّة انتشار الدين فبعث إلى كِسْرَى وإلى هِرَقْل وإلى غيرهما من الملوك والأمراء كى يُسلموا، ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علَمُ الإسلام خفاقًا من الأندلس فى غرب أوربا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين فى شرق آسيا؛ وبذلك وصلت الشامُ والعراق وفارس وأفغانستان، وقد أسلمت كلها، ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء، كما وصلت مصرُ وبرقة وتونس والجزائر ومَرَّاكُش ما بين أوربا وإفريقيَّة ومبعث محمد عليه السلام. ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقى علم الإسلام مرفرفًا على هذه الربوع جميعًا، خلا الأندلس التى أغارت النصرانية عليها فعذّبت أهلها وأذاقتهم ألوانًا من الشدّة واليأس. ولم يُطق أهلها صبرًا على الحياة، فعاد منهم من عاد إلى إفريقيَّة، وردَّ الهول والفزع من ارتدَّ منهم عن دينه ودين أبيه إلى دين العُتاة والمعذِّبين.

على أن ما خسره الإسلام فى الأندلس من غرب أوربا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكَّنوا لدين محمد ﷺ فيها. هنالك امتدَّت كلمته إلى البلقان كلها، وانبلج نوره فى روسيا وفى بولونيا، وخفقت أعلامه على أضعاف ما كانت تخفق عليه من أرض إسبانيا. ومن يوم

انتشر الإسلام فى صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلَّب عليه من الأديان متغلِّب، وإن تغلَّب على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشدَّ بالله إيمانًا، ولحكمه إسلامًا، وفى رحمته وفى غفرانه أملاً ورجاء.

الإسلام والمسيحية:

هذه القوَّة التى انتشر الإسلام بها سرعان ما وقفته وجهًا لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت. لقد تغلَّب محمد على الوثنية، ومحا من بلاد العرب، كما محا خلفاؤه الأوَّلون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند، أثرها. ولقد تغلَّب خلفاء محمد على المسيحية فى الحيرة واليمن والشام ومصر إلى مهد المسيحية مدينة قسطنطين. أفقُدِّر على المسيحية ما قُدِّر على الوثنية من اضمحلال وهى دين كتاب من الأديان التى أشاد بها محمد ونزل الوحى بنبوَّة صاحبها؟ وهل قدَّر لهؤلاء العرب، عرب البادية الزاحفين من شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة، أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس وبزنطية وسائر البلاد المسيحية؟ الموت ولا هذا! واستمر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قرونًا متتالية. ولم يقف القتال عند حرب الأسِنَّة والمدافع، بل تعدَّاها إلى ميادين الجدل والنضال الكلامى، جاء المقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى، وجعل كل فريق يلتمس الوسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصُّبها.

المسلمون وعيسى:

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى، إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا، وجعله مباركًا أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا، وبَرًّا بوالدته ولم يجعله جبارًا شقيًّا فسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا. أمَّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرِّضون بمحمد وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذَّب من الرجال، شفاءً لما فى نفوسهم من غِلّ، واستفزازًا وحفزًا لشهوات الناس الدنيا. وعلى رغم ما يقال من أن الحروب الصليبية وضعت أوزارها منذ مئات السنين ظلّ تعصُّب الكنيسة المسيحية على محمد على أشدّه إلى عصور قريبة. ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشدّ، وإن كان خفيًّا يعمل فى ظلمات التبشير بالدون من الوسائل. ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعدّاها إلى كتَّاب وفلاسفة فى أوربا وفى أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تذكر.

المسيحيون المتعصبون ومحمد ﷺ:

ولقد يعجب الإنسان أن يظل تعصب المسيحية على الإسلام بهذه الشدة فى عصر يزعمون أنه عصر النور والعلم، وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق ويزداد الإنسان عجبًا إذ يذكر المسلمين الأوَّلين وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على المجوسية عظيمًا حين ظفرت جيوش هِرقل بأعلام فارس وكسرت عسكرَ كِسْرَى. فقد كانت فارس صاحبة النفوذ فى جنوب شبه جزيرة

العرب منذ أخرج كسرَى الأحباش من اليمن. ثم إن كسرى وجَّه جيوشه - سنة ٦١٤ ميلادية - تحت إمرة قائد من قوَّاده يدعى شَهْرَ بَراز[١] لغزو الروم، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذْرِعات وبُصْرَى، أدنى الشام إلى أرض العرب، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم. وكان العرب، ولاسيما أهل مكة، يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف؛ فقد كانت القوَّتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ، وكانت بلاد العرب تجاورهما، وتخضع بعض أجزائها لفارس وتتاخم الروم بعض أجزائها الأخرى. وشمِت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم؛ لأنهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يُلصقوا بدينهم عار اندحارهم. أمَّا المسلمون فشقّ عليهم أمر الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم، فكان محمد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم. وأدّى هذا الخلاف بين مسلمى مكة وكفَّارها إلى تنادر الفريقين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبى بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول: لا تعجَل بالمسرّة، فسيأخذ الروم بثأرهم. وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس. فلما سمع الكافر قوله أجابه متهكمًا: كذبت. فغضب أبو بكر وقال: كذبت أنتَ يا عدوّ الله! وهذا رهان عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام. وعرف محمد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبى بكر أن يزيد فى الرهان وأن يطيل المدة. فزاد أبو بكر فى الرهان إلى مائة بعير إن هُزمت الفرس قبل تسع سنين. وانتصر هرَقْل سنة ٦٢٥ وهزم فارسَ واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأعظم وكسَب أبو بكر رهانه. وفى النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى فى صدر سورة الروم: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فى أَدْنَى الأَرضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

المبادئ الأولية فى الدينين:

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيمًا، وظلّت صلة الإخاء بين الذين اتبعوا محمدًا والذين آمنوا بعيسى عظيمة طوال حياة النبىّ وإن تكرر بين الفريقين ما كان من مجادلة، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أوّل الأمر ثم عداوة استمرّت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جمعاء. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا اليهودَ والَّذِين أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذين قالوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

---

(١) يذكر الدكتور بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) أن اسم هذا القائد خوريام، وأن (شهربرز) و (شهربران) و (شراوزية) وغيرها من الأسماء التى لقب بها فى الكتب المختلفة ليست إلا تحريفًا للاسم الفارسى (شهر - وزر) وهو لقب معناه (الخنزير البرى للملك) رمزًا للقوة الباسلة. فكانت صورته ماثلة لذلك على خاتم فارس القديمة وكذلك على خاتم أرمينية. (راجع فتح العرب لمصر ص ٥٣).

(٢) سورة الروم الآيات من ١ إلى ٦ .

(٣) سورة المائدة آية ٨٢ .

ثم إنك لترى الدينين يصوّران الحياة والخُلْق صورةً تكاد تكون واحدة وهما فى تصوير الإنسانية ومبدأ خَلْقها سواء: خلق الله آدم وحوّاء وأسكنها الجنة وأوحى إليهما ألّا يسمعا إلى نزغ الشيطان فيأكلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة. والشيطان عدوّهما الذى أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد، والذى أبى أن يقدّس كلمة الله، على رواية كتب النصارى المقدّسة، ووسوس الشيطان لحوّاء وزيّن لها، فزيّنت لآدم فأكلا من شجرة الْخُلْدِ فبدتْ لهما سوءاتهما، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعض ذرّيتهم لبعض عدوّ، يغريهم الشيطان فيضلّ قوم ويقاوم الهلاك آخرون. ولتقوى الإنسانية على حرب الغَوَاية بعث الله نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين، وبعث مع كل رسول كتابًا بلسان قومه مصدّقًا لما بين يديه ليبيّن لهم. وكما يقوم فى صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر، تقوم الملائكة تسبّح بحمد ربها وتقدّس له. وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعًا حتى يوم البعث، يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت ولا يُسْأل حميمٌ حميمًا.

الخلاف بينهما - التوحيد والتثليث:

وإنك لتجد فى القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لها وتقديمه إياهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الإخاء، وما يجعلك تسائل: ما بال المسلمين والنصارى إذًا ظلوا على القرون خصومًا متقاتلين؟ والجواب عن سؤالك أنّ بين الإسلام والنصرانية خلافًا على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد فى عهد النبىّ، وإن لم يتعدّ الأمر الجدل إلى العداوة والبغضاء. فالنصرانية لا تُقِرّ بنبوّة محمد كما يقرّ الإسلام بنبوّة عيسى، والنصرانية تقول بالتثليث، والإسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد الإنكار. والنصارى يؤلهون عيسى ويتلمّسون الدليل على ألوهيته فى أنه تكلّم فى المهد وأوتى من المعجزات ما لم يؤته غيره مما هو من عمل الخالق جلّ سأنه. وهم كانوا أيّام الإسلام الأولى يحاجون المسلمين فى ذلك بالقرآن ويقولون: أوَ ليس يقرّ القرآن الذى نزل على محمد رأينا حين يقول: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

فالقرآن قد ذكر إذًا أنه يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين طيرًا، ويخبر بالغيب، وكل هذه خصائص إلهيّة. هذا رأى نصارى عهد النبىّ الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه

(١) سورة آل عمران الآيات من ٤٥ إلى ٤٩.

ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله. ولقد ذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم أن ألقى الله إليها بكلمته. وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. ولم يكن أصحاب هذا القول بألوهية عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرّقة يومئذ شِيَعًا وأحزابًا.

مجادلة النصارى للنبى ﷺ:

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمدًا على اختلاف نِحَلهم على أساس مذاهبهم. فكانوا يقولون إن المسيح هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة، وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه. ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعْلَم، وأنه تكلّم فى المهد صبيًّا مما لم يقع لأحد من بنى آدم. ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أَمَرْنا وخلقنا وقضينا، ولو كان واحدًا لقال أمرت وخلقت وقضيت. وكان محمد يستمع لهم جميعًا ويجادلهم بالتى هى أحسن. وهو لم يكن فى جِدالهم يشتدّ شدّته فى جدال المشركين وعبّاد الأصنام، بل كان يحاجُّهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاءَ فيها: فالله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كفرَ الذِينَ قالوا إن الله هو المَسِيحُ ٱبنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شيئًا إنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسيحَ ٱبنَ مَرْيَمَ وأُمَّه وَمَنْ فى الأرضِ جميعًا. ولِلّهِ مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاءُ والله على كل شىءٍ قَدِيرٌ. وقالت اليَهُودُ والنَّصارى نحن أبناءُ اللّهِ وأحِبَّاؤُه قل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكم بل أنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق يَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويعَذِّبُ مَنْ يشاء﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إنَّ الله هو المَسيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وقال المَسيحُ يا بَنى إسرائيلَ ٱعْبُدوا اللّهَ رَبِّى وَرَبَّكم إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فقد حَرَّمَ الله عليْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواه النارُ وَمَا للظَّالمين مِنْ أَنْصار. لَقَدْ كَفَرَ الَّذين قالوا إنَّ الله ثَالِثُ ثَلاثةٍ وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحِدٌ وإنْ لم يَنْتَهُوا عَمَّا يقولون لَيَمَسَّنَّ الَّذِين كفروا مِنهم عذابٌ أَليم﴾[2] وقال جلَّ شأنه: ﴿وإذْ قال اللّهُ يا عيسَى ٱبنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ للناسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إلهين مِنْ دونِ اللّه قال سُبْحَانَكَ ما يَكُونُ لى أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لى بِحَقٍّ إنْ كنتُ قلته فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِك إنَّك أَنتَ عَلامُ الْغيوب. مَا قُلْتُ لهم إلَّا ما أَمَرْتَنى به أَنِ اعْبُدُوا الله رَبِّى وَرَبَّكُمْ وكنتُ عليهم شهيدًا مَا دُمتُ فيهم فلمَّا تَوَفَّيْتَنى كنت أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ وأَنتَ عَلَى كلِّ شىءٍ شهيدٌ. إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُك وإن تغْفِرْ لهمْ فإنَّك أَنْتَ العزيزُ الحكيم﴾[3].

تقول المسيحيَّة بالتثليث وبأن عيسى ابْنُ الله، والإسلام يُنكر إنكارًا صريحًا باتًّا أن يكون لله ولد. ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحدٌ. اللّهُ الصَّمدُ. لم يَلِدْ ولم يُولَد. ولم يكُنْ له كُفوًا أَحدٌ﴾[4]. ﴿مَا كانَ للّهِ أَنْ

---

(١) سورة المائدة آيتا ١٧، ١٨.
(٢) سورة المائدة آيتا ٧٢، ٧٣.
(٣) سورة المائدة الآيات من ١١٦ إلى ١١٨.
(٤) سورة الإخلاص.

يَتَّخِذَ مِنْ ولدٍ سُبْحَانَه﴾[١]. ﴿إنَّ مَثَلَ عِيسَى عندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه من تُرَابٍ ثم قال له كُنْ فيكون﴾[٢].

والإسلام دين توحيد فى أشدّ معانى التوحيد صفاءً وقوة، وفى أشد معانى التوحيد بساطة ووضوحًا. وكل ما يمكن أن يُلقى ظلا على فكرة التوحيد أو صورته يُنكره الإسلام ويراه كفرًا. ﴿إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلِك لِمَنْ يَشاء﴾[٣].

فمهما يكن للصورة المسيحية فى التثليث من صلة تاريخية ببعض الأديان القديمة فهى ليست من الحق عند محمد فى شىء. إنما الحق هو الله وحده، لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فلا عجب إذًا أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتى هى أحسن، وأن يؤيد الوحى محمدًا بما تلوت من الآيات.

مسألة صلب المسيح:

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية، وكانت مثار جدل بينهما فى عهد النبىّ: تلك مسألة صلب عيسى ليفتدى بدمه خطايا الخَلْق. فالقرآن صريح فى نفى أن اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه، إذ يقول: ﴿وقَوْلِهم إنَّا قَتَلْنَا المسيحَ عيسَى ٱبنَ مَرْيم رَسُولَ اللّهِ وما قَتلوه وما صلَبوه ولكن شُبِّه لهم وإنَّ الَّذين ٱخْتَلفوا فيه لفى شَكٍّ مِنْه ما لَهُمْ به من علْمٍ إلَّا ٱتِّباعَ ٱلظَّنِّ وما قَتَلُوه يقينًا. بل رَفَعَه اللّهُ إليه وكان اللّهُ عزيزًا حكيمًا﴾[٤].

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته من بنى آدم جميلة لا ريب ويستحق ما كتب فيها دراسةً من نواحيه الشعرية والخُلقية والنفسية، لقد كان المبدأ الذى قرّره الإسلام من أنه لا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرَى، وأنّ كل امرئ يوم القيامة مجزىّ بأعماله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، يجعل التقريب المنطقىّ بين العقيدتين غير ممكن، ويجعل منطق الإسلام من الدقة بحيث لا تُجدى معه محاولات التوفيق، مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتى. ﴿لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِه وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾[٥].

الروم والمسلمون:

هل فكر أحد من نصارى يومئذ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى؟ نعم، وآمن به منهم كثيرون. ولكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصرًا للأديان الكتابية؛ لم يكلف سادتُهم أنفسهم مؤونة البحث فى الدين الجديد، ولم يلبثوا

---

(١) سورة مريم آية ٣٥.
(٢) سورة آل عمران آية ٥٩.
(٣) سورة النساء آية ٤٨.
(٤) سورة النساء آيتا ١٥٧، ١٥٨.
(٥) سورة لقمان ٣٣.

أن نظروا إلى الأمر من ناحيته السياسية، وفكروا فيما يصيب ملكهم إذا تمّ للدين الجديد الغَلَب. لذلك بدءوا يأتمرون به وبأهله، حتى أرسلوا جيشًا عرمرمًا عِدَّته مائة ألف فى رواية، ومائتا ألف فى رواية أخرى، مما أدّى إلى غزوة تَبُوك. وقد انسحب فيها الروم أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوّغه.

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قرونًا متتالية امتدَّت إمبراطوريتهم فى أثنائها إلى الأندلس غربًا وإلى الهند والصين شرقًا. وآمنت أكثر أجزاء هذه الإمبراطورية بالدين الجديد واستقرَّت فيها لغته العربية. فلما آن لدورة التاريخ أن تدور، طرد النصارى المسلمين من الأندلس، وحاربوهم الحروب الصليبية، وأخذوا يطعنون فى دينهم ونبيهم طعنًا كله فحش وكذب وافتراء؛ ونسوا فى فحشهم ما بلَّغ محمد عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه، وما بلَّغ القرآن فى الوحى الذى نزل عليه، من رفع مقام عيسى عليه السلام إلى المستوى الذى رفعه الله إليه.

كتَّاب المسيحية ومحمد ﷺ:

جاء فى موسوعة لاروس الفرنسيَّة خلال العَرْض لآراء كتَّاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شرّ نيل ما يأتى: «بقى محمد مع ذلك ساحرًا ممعنًا فى فساد الْخُلُق، لصّ نِياق، كردينالاً لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية، فاخترع دينًا جديدًا لينتقم من زملائه. واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته. وسيرة باهوميه (محمد) تكاد تقيم أدبًا من هذا النوع. وقصة محمد التى نشرها رينا وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصوّر لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه. وفى القرن السابع عشر نظر بِيل فى تاريخ أدب القرآن نظرة تاريخية. مع ذلك ظلَّت مقرّراتٌ ظالمةٌ ثابتةً فى نفسه عنه. على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامه لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدُّد الزوجات».

وإن واحدًا من المستشرقين الذين عرضوا لحياة محمد ﷺ بشىء من الإنصاف – ذلك هو الكاتب الفرنسى إميل دِرْمِنْجِم – ليذكر بعض هذا الذى كتب إخوانه فى الدين فيقول[1]: «لمَّا نَشِبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتَّسعت هوَّة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدَّةً. ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشدّ الخلاف. فمن البزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارًا من غير أن يكلّفوا أنفسهم – فيما خلا جان داماسيين – مؤونة دراسته. ولم يحارب الكتَّاب والنظامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب. فقد زعموا أن محمدًا لص نياق، وزعموه متهالكًا على اللهو، وزعموه ساحرًا، رئيس عصابة من قطَّاع الطرق، بل زعموه قَسًّا رومانيًّا مغيظًا

(١) راجع كتاب درمنجم (حياة محمد) ص ١٣٥ وما بعدها.

مُحْنقًا أنْ لم يُنتخب لكرسى البابوية.. وحَسِبه بعضهم إلهًا زائفًا يقرّب له عباده الضحايا البشرية. وإن جبير دنوجَن نفسه، وهو رجل جِدّ، ليذكر أن محمدًا مات فى نوبة سكر بَيّن؛ وأن جسده وجد ملقًى على كوم من الرَّوْث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حُرّم لحم ذلك الحيوان. وذهبت الأغنيات إلى حدّ أن جعلت محمدًا صنمًا من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابىّ ملأى بالتماثيل والصور!! وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعًا من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفُسَيْفِسَاء. أمّا أغنية رولان التى تصوّر فرسان شارلمان يحطّمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثًا مكوّنًا من تَرْفَاجان وماهوم وأبلون. وتحسب «قصة محمد» أن الإسلام يبيح للمرأة تعدّد الأزواج!

«وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة. فمنذ رُودُلْف دُلُوهَيْم إلى وقتنا الحاضر قام نِيكُولاَدِكِيز، وڤيڤس، ومَرَاتْشى، وهُوتنْجرَ وبيلْياندر، وبريدو وغيرهم، فوصفوا محمدًا بأنه دجّال، والإسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان، والمسلمون بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من السخافات، وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجد فى أمر هذا مبلغ سخافته. مع ذلك فإن بيير المحترم (فنرابل) مؤلف أول رسالة غربية ضد الإسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية. وفى القرن الرابع عشر كان بيير باسْكال من الذين توسّعوا فى الدراسات الإسلامية. وقد وصف إنّوسان الثامن محمدًا ﷺ يومًا بأنه عدوّ المسيح. أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمدًا إلا هرطيقًا. وكان لريمون ليون فى القرن الثامن عشر، ولغليوم بَسْتِل فى القرن السادس عشر، ولرولان وجانبيه فى القرن الثامن عشر، وللقسيس دبْرُجْلى ولرينان فى القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة. على أن الكونت بُولَنْفِلييه وسُولْ وكُوسَّان دبْرسفال ودوزى وسبرنجر وبَارْتلمى سانتيلير ودكاسْترى وكارلَيْل وغيرهم يُظهرون على وجه الإجمال إنصافا للإسلام ونبيه، ويُشيدون فى بعض الأحيان بهما. مع ذلك فإن دُرُوتى يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا: «هذا الأعرابىّ المنافق القذر»، كما طعن عليه فُوسْتر من قبل ذلك سنة ١٨٢٢. وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون».

أرأيتَ الحضيض الذى هوت إليه هذه الطائفة من كتّاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم، مع توالى القرون، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية؟! ومِنْ هؤلاء مَنْ جاءوا فى العصور التى يسمونها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقرير الإخاء بين الإنسان والإنسان. قد يخفف من أثر هذا الضلال قيام أولئك المنصفين إلى حدّ ما، ممن أشار إليهم درمنجم، ومنهم من يقرّ بصدق إيمان محمد ﷺ بالرسالة التى عهد الله إليه تبليغها من طريق الوحى، ومنهم من يُشيد بعظمة محمد ﷺ الروحية وبسموّ خُلقه ورفعة نفسه وجمّ فضائله، ومن يصوّر ذلك فى أقوى أسلوب وأتمه

روعة. وإن يقى الغرب مع ذلك ينال من الإسلام ونبيه أشدّ النيل، ثم تبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين فى أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة، ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية.

سبب الخصومة بين الإسلام والمسيحية:

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذى ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التى تثيرها المسيحية على الإسلام. وعندنا أن جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى فى مقدّمة ما يدعو إلى هذه الخصومة. والجهل ولا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدّها استعصاء.

الجهل والتعصب:

ولقد تراكم هذا الجهل على مرّ القرون وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوّة الإسلام أول ظهوره، على أنّا نحسب أن ثمة سببًا غير الجهل هو الذى دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها ويثيرونها على الإسلام وعلى المسلمين آنًا بعد آن. وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة وحب الظّفر بالشعوب لاستغلالها: فتلك فى اعتقادنا نتيجة لا سببٌ لهذا التعصب المستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه.

المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب:

أما السبب فى رأينا فيرجع إلى أن المسيحية، وما تدعو إليه من الزهد فى الحياة واعتزال العالم .ومن العفو والمغفرة ومن المعانى النفسانية السامية، ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على دين تعدّد الآلهة، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال. فإذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يدين بالمسيحية فلا مفرَّ له من أن يُسبغ عليها ثوب الكفاح، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة، وأن يُفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أقامها الإسلام: هذه الوحدة التى تؤاخى بين الروح والجسد، وتزاوج بين العاطفة والعقل، وتسلك الفرد والإنسانية جميعًا فى نظام الكون على أنهما بعض منه متّسق وإياه فى لا نهاية الزمان والمكان. هذا فى رأينا هو مرجع السبب فى تعصّب الغرب فى موقفه من الإسلام موقفًا تجافت الحبشة المسيحية عنه حين احتمى المسلمون بها أوّل ما دعا النبى إلى دين الله.

وإنى هذا السبب فى رأيى، يرجع إغراق الغربيين وغلوّهم فى التدين وفى الإلحاد جميعًا، إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح. وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قِدّيسين احتذَوْا فى حياتهم مثال السّيد المسيح والحواريين، فإن التاريخ قد عرف كذلك أن حياة أمم الغرب

كانت دائمًا حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين، وعرف أن بابوا الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا فى نزاع دائم يغالب بعضهم بعضًا، فيتغلَّب هذا يومًا ويتغلَّب ذاك يومًا آخر. ولمَّا كان الفوز فى القرن التاسع عشر قد تم للسلطة الزمنية، حاولت هذه السلطة أن تقضى على الحياة الروحية باسم العلم، وأن تزعم أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية. وها هى ذى عَرفت اليوم، بعد جهاد طويل، سوء رأيها، وأن ما قصدت إليه مستحيل تحقيقه. والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهله حياةً روحيَّة أضاعوها، فهم يتلمَّسونها فى الثيوزوفيَّة وغير الثيوزوفية[1]. ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التى تنشأ بحكم الطبيعة كجزء من حياة أهل الغرب، لرأيتهم، وقد شَعروا بعجز الفكرة الماديَّة عن أن تُلهمهم المدد الروحىّ، يعودون إلى الدين المسيحى الجميل دين عيسى بن مريم، أن لم يهدهم الله إلى الإسلام، ولمَّا كانوا فى حاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستمدّون منها حياةً روحية يشعر الإنسان بالحاجة إليها حاجته إلى التنفُّس لأنها بعض طبعه، بل لأنها بعض نفسه وكيانه.

الاستعمار والدعوة ضد الإسلام:

وقد عاون الاستعمار الغربى أهله على الاستمرار فى الحملة التى أثاروها على الإسلام وعلى محمد، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحملوا النصرانية عار هزيمة هرقل والروم أمام فارس، فقد قالوا ولا يزال الكثيرون منهم يقولون إن الإسلام هو السبب فى انحطاط الشعوب الآخذة به وفى خضوعهم لغيرهم. وهذه فرية يكفى لإدحاضها أن يذكر قائلها أن الشعوب الإسلامية ظلَّت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كله قرونًا متوالية، وأنها كانت محطّ رجال العلم والعلماء، وموئل الحرية التى لم يعرفها الغرب إلا من أمد قريب. فإذا أمكن أن يُنسب انحطاط طائفة من الشعوب إلى الدين الذى تؤمن به فلا يكون هذا الدينُ الإسلامَ، وهو الذى حفَز بَدْوَ شبهِ جزيرة العرب وأثارهم ومكَّن لهم من حكم العالم.

الإسلام وما صارت إليه الشعوب الإسلامية:

على أن لهؤلاء الذين يُحَمِّلون الإسلام وزْر انحطاط الشعوب الإسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شىء كثير لا يرضاه الله ورسوله، واعتبر من صُلْب الدين ورُمى من ينكره بالزندقة. وندع

---

(١) الثيوزوفية مذهب استنبطته مدام بلافاتسكى الأمريكية من أديان الهند ومن البوذية والبرهمية منها بنوع خاص، ودعته دين الحكمة. وقد تأسست لهذا المذهب جمعية فى أمريكا كانت مدام بلافاتسكى رئيستها، وتأسست فروع لهذه الجمعية فى بلاد أوربا المختلفة. على أن مدام بلافاتسكى ما كادت تموت حتى انقسمت الجمعية الثيوزوفية إلى ثلاث شعب. ومذهب هذ الجمعية يقوم على وحدة الحياة، ويدعو إلى نوع من الرياضة الصوفية لبلوغ مرتبة (النرفانا) البوذية. وهذه المرتبة يبلغها صاحبها حين يصل من رياضته إلى الفصل التام بين الروح والتأثر بمادیات الحياة، وحين تسمو الروح بذلك إلى مكان من القدسية والطهر تتصل فيه الأرواح العليا. ومذهب الثيوزوفية يدعو كذلك إلى إخاء الإنسانية إخاء عامًا تزول معه فوارق الجنس واللغة وكل ما يعتبره الناس عوائق دون هذا الإخاء.

الدّين جانبًا ونقف عند سيرة صاحبه عليه الصلاة والسلام. فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبى ما لا يصدّقه العقل ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة، وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيِّه وعلى الأمم الإسلامية واتخذوه تُكَأتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف. اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة، هذه الطريقة التى تعرض الحوادث والناس والأبطال فتُصدر بعد ذلك حكمها عادلاً إن هى رأت لإصدار حكم محلاً. فإذا أنت وقفت عند ما كتبه هؤلاء رأيته تمليه شهوة الجدل والتجريح، مصوغًا فى عبارة لا تخلو من براعة تستهوى إخوانهم فى العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمى المجرّد النزّاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفّها من وراء كل الحجب، هو الذى وجّه هؤلاء المتعصّبين من الكتّاب والمؤرخين. على أن السكينة التى يُنزلها الله على نفوس الراضين من الناس، كُتّابًا وعلماء، قد أدّت بآخرين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النَّصفَة.

الجمود والاجتهاد عند المسلمين:

ولقد قام بعض علماء المسلمين فى ظروف مختلفة فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب. واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء فى هذا الصدد. لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتّاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يسلكونها لتكون لحجتهم قوّتها فى وجه خصومهم.

أثر الجمود فى الشباب:

ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين، والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم، قد اتهموا بالإلحاد والكفر والزندقة، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام. ولقد كان اتّهامهم هذا عميق الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين. شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود. لذلك جزعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يتلمَّسون فيها الحقيقة، اقتناعًا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين. وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال؛ إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمَّسون فى أسلوبها العلمى رِيّ ما فى نفوسهم من ظمأ مُحرق للحق، وفى منطقها ضياءً للجَذوة المقدّسة الكمينة فى النفس الإنسانية، ووسيلةً إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا. وهم واجدون فى كتب الغرب، سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفى وكتب الأدب نفسه، الشيءَ الكثير مما يُغْرى الإنسان بالأخذ به، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق. لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها، حرصًا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب

لا ثقة لهم بالانتصار فيها، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية.

علم الغرب وأدبه:

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها. وزادهم انصرافًا ما رأوا العلم الواقعىّ والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرّرانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدىّ (الميتافيزيقى) ليس هو أيضًا من الطريقة العلمية فى شىء. ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحًا صريحًا فى البلاد الغربية، ورأوا البلاد التى تقرّر دساتيرها أن مَلِكها هو حامى البروتستنتية أو الكثلكة، أو تقرّر أن دين الدولة الرسمى المسيحية، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها؛ فازدادوا انخراطًا فى هذا التفكير العلمى وحرصًا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب. فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية، شغلتهم هذه الحياة عن التفكير فى المسائل التى انصرفوا من قبلُ عن التفكير فيها، وظل اتجاههم الفكرى فى تياره الأول، ينظر إلى الجمود العقلى مشفقًا مزدريًا، ويَنهل من وِرْد التفكير الغربى والفلسفة الغربية، فيجد فيهما لذّةً ويزداد بهما إعجابًا وعلى ما نهل صَلْرَ شبابه منهما حرصًا.

وليس ريب فى أن الشرق اليوم فى حاجة أشد الحاجة إلى النَّهل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن. فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصب غَشَّت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد. فلا مفرّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير فى العالم، ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحىّ وثروة الماضى وتراثه العظيم.

جهود التجديد الإسلامى:

ومن الحق علينا للغرب أن نقول: إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الإسلاميَّة والدراسات الشرقية، قد مهد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزوّدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاءً فى الاهتداء إلى الحق؛ فهم أقرب بطبعهم إلى حسن إدراك الروح الإسلامى والروح الشرقىّ. وما دام التوجيه الجديد قد بدأ فى الغرب، فواجب علينا أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثّوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده إلى الحياة ويصله بالحاضر، لا على أنه مجرّد دراسة وبحث، بل على أنه ميراث روحى وعقلى يجب أن يتمثّله الوارثون، وأن يضيفوا إليه، وأن يزيدوه من ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونورًا.

المبشرون والجامدون:

وقد توفَّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الصحيحة: والمستشرقون أنفسهم يقدرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه.

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجدير بأن يؤتى خير الثمرات، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتُر فى الطعن على الإسلام وعلى محمد ﷺ طعنًا لا يقلُّ عما تلوت منه فيما سبقت الإشارة إليه. والاستعمار الغربى يُؤيد بقوَّته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى، مع أن أصحاب هذه المطاعن قد أُجْلُوا عن بلادهم وحِيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الإيمان فى نفوس إخوانهم فى الدين. وهذا الاستعمار يؤيِّد كذلك دعاة الجمود من المسلمين. وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد ما دُسَّ على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه، وعلى سيرة الرسول ﷺ من خرافات لا يُسيغها العقل ولا يقبلها الذوق، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد ﷺ بما دُسَّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول.

كيف فكرت فى وضع هذا الكتاب:

أتاحت لى ظروف حياتى العملية أن أرى ذلك كله فى مختلف بلاد الشرق الإسلامى، بل فى البلاد الإسلامية كلها، وأن أتبين ما يُقْصَد إليه من القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة. وقد شعرت بأن علىَّ واجبًا أقوم به فى هذا الموضوع لإفساد الغاية التى ترمى هذه الخُطة إليها، والتى تضر الإنسانية كلها ولا يقف ضررها عند الإسلام والشرق. وأىّ أذًى يصيب الإنسانية أكبر من العُقْم والجمود يصيبان نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حِقَب التاريخ! ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير. وهدانى تفكيرى آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد ﷺ صاحب الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة، خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده.

بدأت أراجع تاريخ محمد ﷺ، وأعيد النظر فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازى الواقدى، وعدتُ إلى كتاب سيد أمير على (روح الإسلام)، ثم حَرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين، فقرأت كتاب بِرْمنْجِم وكتاب وشنطن إرفِنْج، ثم انتهزت فرصة وجودى بالأقصر فى شتاء سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب. ولقد تردَّدت يومئذ فى أن أجعل البحث الذى أطالع قرَّائى به من وضعى أنا خيفةَ ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد علىَّ ما أريد. لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفة شيوخ المعاهد، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدلّ على العناية بالبحث الذى أقوم به، جعلنى أفكر تفكيرًا جدِّيًّا فى إنفاذ ما اعتزمت من كتابة حياة

محمد ﷺ على الطريقة العلمية الصحيحة كتابة مفصّلة، ودعانى إلى التفكير فى أمثال الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصًا علميًّا جهد ما أستطيع.

القرآن أصدق مرجع:

ولقد تبّينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبىّ العربى يتخذها الباحث منارًا يهتدى به فى بحثه، ويحص على ضيائه ما ورد فى كتب السنّة وما جاء فى كتب السيرة المختلفة. وأردت جاهدًا أن أقف على كل ما ورد فى القرآن متصلاً بحياة النبى؛ فإذا معونة صادقة فى هذا الباب يقدّمها إلىّ الأستاذ أحمد لطفى السيّد الموظف بدار الكتب المصرية، هى مجموعة وافية مبوّبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحى الكتاب الكريم إليه. وأخذت أدقق فى هذه الآيات، فرأيت أن لا بدّ من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته. وأعترف بأنى، على ما بذلتُ فى ذلك من جهد، لم أوفق لكل ما أردت منه. فكتب التفسير تشير أحيانًا إليه وتهمل هذه الإشارة فى أكثر الأحايين. ثم إن كتاب «أسباب النزول» للواحدى، وكتاب «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة، إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولاً موجزًا. على أننى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّة استطعت أن أمحص بها ما ورد فى كتب السيرة، ووجدت فيهما وفى كتب التفسير نفسها أشياء جديرة بمراجعة العلماء المتبحرّين فى علوم الكتاب والسنّة وتحقيقهم إياها من جديد تحقيقًا دقيقًا.

المشورة الصادقة:

ولما تقدم بى البحث بعض الشىء ألفيت المشورة الصادقة تصل إلىّ من كل صوب، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كل ناحية أخرى بطبيعة الحال. وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب ورجالها الذين أمدُّونى من ألوان المعونة بما لا يفى الشكر بحسن تقديره. ويكفى أن أذكر أن الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب كان يكفينى مؤونة الذهاب إلى الدار فى كثير من الأحيان ويستعير لى ما أريد استعارته من الكتب مشمولاً بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها؛ وأن أذكر أنى فى كل مرة ذهبت إلى الدار كنت أجد أجمل العون فى البحث عما أريد البحث فيه من موظّفى الدار كبارًا وصغارًا، مَن عرفتُ منهم ومن لم أعرف. ثم إنه كانت تستغلق علىّ بعض المسائل أحيانًا فأفضى إلى من آنس فيه المعرفة من أصدقائى بما استغلق علىّ فأجد فى كثير من الأحيان خير العون. وجدت ذلك غير مرّة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، ووجدته عند صديقى الضليع جعفر (باشا) والى الذى أعارنى عدّة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة، ودلّنى على غير مسألة من المسائل وهدانى إلى موضعها، وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد (باشا) كتاب المستشرق السير وليم مُوير «حياة محمد» وكتاب الأب لامَنْس «الإسلام». هذا إلى ما وجدت من عون فى مؤلّفات المعاصرين القيمة ككتاب «فجر الإسلام»

للأستاذ أحمد أمين، و«قصص الأنبياء» للأستاذ عبد الوهاب النَّجار، و«فى الأدب الجاهلى» للدكتور طه حسين، و«اليهود فى بلاد العرب» لإسرائيل ولِفِنْسُنَ، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته فى بيان المراجع القديمة والحديثة التى استعنت بها على وضع هذا الكتاب.

ولقد كنت كلما ازددت توسعًا فى البحث أرى مسائل تنجم أمامى وتستدعى التفكير ومزيدًا من البحث لحلها. وكما عاونتنى كتب السيرة وكتب التفسير فى الاهتداء إلى غاية من تفكيرى أطمئن إليها، عاونتنى كذلك كتب المستشرقين فى الاهتداء إلى غاية أطمئن إليها. على أننى رأيتنى مضطرًّا فى كل المواقف لأقصر بحثى فى حدود حياة محمد ﷺ نفسه ما لم أضطرَّ إلى تناول مسائل أخرى متصلة بهذا البحث اضطرارًا. ولو أننى أردتُ أن أبحث كل ما اتصل بهذه الحياة الفيَّاضة العظيمة، لاحتاج الأمر إلى وضع مجلَّدات عدّة فى حجم هذا الكتاب. ويحسن أن أذكر أن كُوسَّانْ دِبِرْسفال وضع ثلاثة مجلَّدات بعنوان «رسالة فى تاريخ العرب»، جعل المجلَّدين الأوَّلين منها فى تاريخ قبائل العرب وحياتها، وجعل الثالث عن محمد ﷺ وخليفتيه الأولين أبى بكر وعمر. وطبقات ابن سعد تقع فى مجلَّدات كثيرة يتناول جزؤها الأوَّل حياة محمد، ﷺ وسائر أجزائها حياة أصحابه. ولم يكن غرضى أوَّل ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد ﷺ، فلم أرد فى أثنائه أن أتركه يتشعَّب فيحول ذلك بينى وبين الغاية التى إليها قصدت.

فى حدود السيرة لا أتعداها:

وشىء آخر كان يُمسكنى فى حدود هذه الحياة، ذلك روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياءً يتوارى دونهما كل ما سواهما. فما كان أعظم أبا بكر! وما كان أعظم عمر إذ كان كل منهما فى خلافته عَلَمًا يحجب سواه! وما أشدَّ ما كان للسابقين الأوَّلين إلى صحبة محمد ﷺ من عظمة ثبتت على الأجيال وهى بعدُ مما تفاخر به الأجيال. لكن بهؤلاء جميعًا كانوا يستظلُّون أثناء حياة النبى بجلال عظمته ويستضيئون بباهر لألائه. فليس من اليسير على من يبحث فى سيرة الرسول أن يدعها لشىء سواها. وهو أشد شعورًا بذلك إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولت أن أفعل؛ هذه الطريقة التى تجلو عظمة محمد ﷺ على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة جميعًا، ويغرس فيها من الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم.

وأنت إذا طرحت جانبًا أولئك المتعصبين الحمقى الذين جعلوا النيل من محمد ﷺ دأبهم كالمبشرين وأشباههم، فإنك واجدٌ هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوّتها فى كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين. عقد كَارْليل فى كتابه «الأبطال» فصلاً عن محمد ﷺ صوَّر فيه الجَذوة الإلهية المقدَّسة التى أوحت إلى محمد ﷺ ما أوحت فصوَّر العظمة فى جلال قوَّتها. ومُوير، وإرْفِنج، وسْبِرِنْجَر، وفَيل، وغيرهم من المستشرقين والعلماء قد صوَّر كل واحد منهم عظمة محمد ﷺ تصويرًا

قويًا وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة الإسلامية، لغير شيء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحصها التمحيص العلميّ الدقيق، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد في بعض كتب السيرة أو كتب التفسير من الروايات المضطربة، متناسيًا أن أوّل كتب السيرة إنما كُتب بعد قرنين من عصر محمد ﷺ دُسَّت أثناءها في سيرته وفي تعاليمه إسرائيليات كثيرة، ووضعت أثناءها ألوف الأحاديث المكذوبة. ومع أن المستشرقين يقرّرون هذه الحقيقة، تراهم لا يأبَوْن مع ذلك تناسيها ليقرّروا أمورًا يعتبرونها صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها. من ذلك مسألة الغرانيق، ومسألة زيد وزينب، ومسألة أزواج النبيّ، مما أتيح لي امتحانه وتمحيصه في هذا الكتاب.

الكتاب بداءة البحث:

لست مع ذلك أحسبني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد ﷺ. بل لعلي أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة، وأن ما بذلت في هذه السبيل من مجهود لا يُخرج هذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل. وإذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور، كما انقطع أولار في فرنسا لبحث عصر الثورة الفرنسية، وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر أو عصور معيّنة من التاريخ في مختلف الأمم، فحياة محمد ﷺ جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها. وليس يساورني شك في أن الانقطاع والبحث العلميّ، في هذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العرب واتصالها بحياة الأمم المختلفة في ذلك العصر، تؤتي نتائجهُ العالم كله، لا الإسلام والمسلمين وحدهم، خيرَ الثمرات. فهي تجلو أمام العلم كثيرًا من المسائل النفسية والروحية فضلًا عما تفيض عليه من ضياء في نواحي الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية لا يزال العلم يتردد أمامها متأثرًا بهذا النزاع الديني بين الإسلام والنصرانية، وبهذه المحاولات العقيمة التي يُقْصَد منها إلى «تغريب» الشرقيين أو تنصير المسلمين، مما ثبت على الأجيال إخفاقه واستحالته وسوء أثره في علاقات أجزاء الإنسانية المختلفة بعضها ببعض.

فائدة البحث إنسانية عامة:

وأذهب إلى أبعد مما تقدَّم فأقول: إن هذا البحث جدير بأن يهدي الإنسانية طريقَها إلى الحضارة الجديدة التي تتلمَّسها. وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الإسلام ورسوله وتشيم هذا النور في ثيوزوفية الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعًا خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق. فالتفكير الإسلاميّ - على أنه تفكير علمي الأساس على الطريقة الحديثة في صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، وهو من هذه الناحية واقعي بحت - ينقلب تفكيرًا ذاتيًا حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون، ويبدع لذلك في

النواحى النفسية والنواحى الروحية آثارًا يقف العلم بوسائله حائرًا أمامها، لا يستطيع أن يُثبتها ولا أن ينفيها، وهو لا يعتبرها حقائق علمية، ثم هى تظلّ مع ذلك قوام سعادة الإنسان فى الحياة ومقوّمة سلوكه فيها. فما الحياة؟ وما صلة الإنسان بهذا الكون؟ وما حرصه على الحياة؟ وما هى العقائد المشتركة التى تبعث فى الجماعات القوّة المعنوية التى تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة؟ وما الوجود؟ وما وحدة الوجود؟ وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته؟ هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدىّ ووجدت منه أدبًا مترامى الأطراف. لكنك تجد حلَّها فى حياة محمد ﷺ وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدىّ الذى أفنى فيه المسلمون قرونًا منذ العهد العباسى، وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى، ثم وقف العلم فى الماضى كما أنه مهدَّد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية. ولا سبيل إلى دَرَك هذه السعادة إلا العود إلى حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغيَّر سننُها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة. وحياة محمد ﷺ هى لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد، ودراسةً عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أوَّلية لبعد ما بينه وبين الصلة الإلهية التى أفاء الله على رسوله. وأكبر ظنى أن هاتين الدراستين خليقتان، يوم يُتاح لها التوفيق، أن تُنقذا عالمَنا الحاضر من وثنية توزَّط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية، وثنيَّة جعلت المال وحده معبودًا، وسخَّرت كل ما فى الوجود من علم وفن وخُلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده. قد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيدًا. لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه، واضحة لكل من تتبَّع سيرة العالم وأحداثه. فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبى ﷺ وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم أثرًا من آثاره. وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكمينة مزيدًا من اتصال بنى الإنسان بحقيقة الكون العليا، كان ذلك الحجر الأول فى أساس الحضارة الجديدة.

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة بدائية فى هذه السبيل كما قدَّمت. وبحسبى أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه، وأن يُقنع العلماء والباحثين بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه. ولو أنه أثمر أيًّا من هذين الأثرين أو كليهما، لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن المجهود الذى بذلت فيه. والله يجزى المحسنين.

محمد حسين هيكل

تقديم الطبعة الثانية

نفدت طبعة هذا الكتاب الأولى بأسرع من كل ما قدّر لها. فقد صدر منها عشرة آلاف نسخة نفد ثلثها بالاشتراك فى الكتاب أثناء طبعه، ونفد سائرها خلال ثلاثة أشهر من صدوره. ولقد دل الإقبال على اقتناء هذا الكتاب على عناية القرّاء بالبحث الذى يحتويه. لذلك لم يكن بد من التفكير فى إعادة طبعه، وفى إعادة النظر فيه.

ملاحظة على الكتاب:

وموضوع الكتاب هو السبب الأول فى الإقبال عليه لاريب. ولعل الطريقة التى عولج الموضوع بها كانت ذات أثر فى الإقبال عليه كذلك. وأيًّا كان السبب فقد سألت نفسى حين فكّرت فى أمر الطبعة الثانية: أفأعيدها صورة من الطبعة الأولى لا أزيد فيها ولا أنقص منها، أم أرجع إليها بالتنقيح والزيادة والتصحيح فيما تتّضح لى ضرورة تصحيحه أو تنقيحه أو الزيادة عليه أشار علىّ بعض من أقدرُ مشورتهم أن أجعل الطبعة الثانية صورة من الطبعة الأولى كيما تتحقق المساواة بين الذين يقتنون أيًّا من الطبعتين، ولكى يتسع لى زمن المراجعة والتنقيح فيما بعد هذه الطبعة الثانية. وكدت آخذ بهذا الرأى. ولو أننى فعلت لكانت هذه الطبعة فى أيدى القرّاء منذ أشهر. غير أنى تردّدت فى الأخذ بهذه المشورة، ثم انتهيت إلى ضرورة التنقيح والزيادة لاعتبارات شتّى. وكان أوّل هذه الاعتبارات بعض ملاحظات تفضّل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى بإبدائها لى حين أطلعته على ما تم طبعه من الكتاب قبل ظهور طبعته الأولى فتفضّل بوضع التعريف الذى صدّرت الكتاب به. فلما ظهر الكتاب تفضّل بعض الكُتاب والعلماء بالتنويه به فى الصحف والمجلات وعن طريق الإذاعة، وأبدَوْا ما عنّ لهم من الملاحظات عليه. وقد أبديت هذه الملاحظات جميعًا بعد الثناء أُلجم على مجهود بذلته لست أحسبه جديرًا بكل هذا التقدير، وأُبديتْ حرصًا على ألاّ تشوب كتابًا عن النبىّ العربى هَنَةٌ من الْهَنَات ما دام مؤلفه قد وفّق فى وضعه توفيقًا أرضاهم ونال تقديرهم. لذلك لم يكن بدّ من أن أعير هذه الملاحظات ما هى جديرة به من عظيم العناية.

ولعل هذا الرضا والتقدير هما اللذان جعلا طائفة من هذه الملاحظات تَرِدُ على مسائل كمالية لا تتصل بجوهر الكتاب ولا بما ورد من الروايات فيه. فمنها ما يرجو أصحابه إيضاح بعض أمور رأوها فى حاجة إلى الإيضاح. ومنها ما يرمى إلى مزيد من التدقيق فى استعمال حروف الجرّ، أو إلى اقتراح بعض ألفاظ بدل أخرى يعتقد الذين اقترحوها أنها أدق تعبيرًا عن المعنى المقصود. على أن طائفة من الملاحظات انصبّت على بعض مباحث الكتاب فدفعتنى إلى مزيد من التفكير والمراجعة.

ولشدّ ما أحرص على أن تكون هذه الطبعة الثانية أدنى إلى إرضاء هؤلاء العلماء جميعا، وإن كنت لا أرى فى البحث كله، كما ذكرت فى تقديم الكتاب، إلا أنه بداءة بحث فى موضوعه باللغة العربية وضع على الطريقة العلمية الحديثة.

ومما أدّى بى كذلك إلى تناول الطبعة الأولى بالتنقيح والزيادة، أننى عدت إلى تلاوة الكتاب بعدها. بعد أن وقفت على ما أبدى عليه من ملاحظات لم يغب أكثرها عنى أثناء وضع الكتاب، فاقتنعت بضرورة الإفاضة فى تمحيص بعض ما وردت الملاحظات عليه لإقناع أصحاب هذه الملاحظات بوجهة نظرى وصواب حجتى. وقد هدتنى مراجعاتى التى قمت بها لهذه الغاية إلى مواضع للتأمل جديرة بأن يتناولها كل كاتب سيرة النبى العربى. ولئن اغتبطت لأننى تناولت فى الطبعة الأولى كل ما أشارت الملاحظات إليه، لأنا اليوم أشد اغتباطًا بأن أفيض فى بعض المباحث إفاضة أعتبرها ضرورية فى هذه الدراسة التمهيدية لحياة أعظم إنسان عرفه التاريخ، خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

وقد حاولت فى هذا التقديم لطبعة الكتاب الثانية تمحيص طائفة من الملاحظات التى أبديت على طريقة البحث فى الطبعة الأولى. وأضفت فى آخر الكتاب فصلين تناولت فيهما أمورًا مررت بموضوعها لمامًا فى خاتمة الطبعة الأولى، كما أنى نقحت وأضفت فى تضاعيف الكتاب ما رأيت تنقيحه أو إضافته بعد الذى هدتنى إليه مراجعاتى وتأمُّلاتى، إتمامًا للبحث وإجابة لأصحاب الملاحظات عن ملاحظاتهم.

أنصار المستشرقين والرد عليهم وما يؤاخذوننى به:

وفى مقدّمة ما أتناوله بالتفنيد رسالة وردت إلىَّ من كاتب مصرى ذكر أنها ترجمة عربية لمقال بعث به إلى مجلة المستشرقين الألمانية نقدًا لهذا الكتاب. ولم أنشر هذه الرسالة فى الصحف العربية لأن بها مطاعن لا سند لها؛ ولذلك تركت لصاحبها أن يتحمل تبعة نشرها إن شاء. ولم أر أن أذكر اسمه فى هذا التقديم اقتناعًا منى بأنه سيعدل عن نسبتها إليه بعد أن يقرأ تفنيدها. وخلاصة هذه الرسالة أن البحث الذى قمت به فى «حياة محمد» ليس بحثًا علميًّا بالمعنى الحديث؛ لأننى اعتمدت فيه على المصادر العربية وحدها، ولم أرجع إلى مباحث المستشرقين الألمان من أمثال «فيل» و«جولدزهر» و «نولدكى» وغيرهم ولم آخذ بنتائج هذه البحوث؛ ولأنى اعتبرت القرآن وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها، مع أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أنه حُرّف وبدّل بعد وفاة النبى وفى الصدر الأول للإسلام، واسم النبى بعض ما بدّل فيه؛ فقد كان اسمه «قثم» أو «قثامة» ثم أبدل من بعد وصار «محمدًا» ليتسنّى وضع الآية: ﴿وَمُبَشِّرًا برسولٍ يأْتى مِنْ بَعْدِى اسمهُ أَحمد﴾ إشارة إلى ما جاء فى الإنجيل عن النبى الذى يجىء بعد عيسى. ويضيف الكاتب إلى أقواله هذه أن بحوث المستشرقين دلّت كذلك على أن النبى كان يصاب بالصَّرْع، وأن ما كان يسميه الوحى الذى

ينزل عليه إنما كان أثرًا لنوبات الصرع التى كانت تعتريه، وأن أعراض الصرع كانت تبدو على محمد ﷺ فكان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج من فيه الرغوة، فإذا أفاق من نوبته ذكر أنه أوحى إليه وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه من وحى ربه.

أسباب خطأ المستشرقين:

لم أكن لأعْنى بهذه الرسالة ولا بتفنيد ما فيها لولا أن كاتبها مصرى مسلم ولو أنه كان مستشرقًا أو مبشرًا لتركته ملقًى حبله على غاربه، يقول ما تمليه عليه أهواؤه وما تنضح به شهواته. وحسبى ما ذكرت فى تقديم الكتاب وفى تضاعيفه إدحاضًا لأقوال هؤلاء وأولئك. لكن كاتب هذه الرسالة إنما هو مثل لطائفة من شبابنا ورجالنا المسلمين الذين يتلقّون كل ما يقوله المستشرقون بقبول حسن، ويعتبرونه العلم الصحيح المعبّر عن الحقيقة الخالصة. وإلى هؤلاء أوجّه القول هنا لأحذّرهم ما يقع المستشرقون فيه من خطأ. وبعض هؤلاء المستشرقين مخلص فى بحثه على رغم خطئه. لكن الخطأ يتسرّب إلى بحثه لعدم دقته فى إدراك أسرار اللغة العربية تارة، ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقرّرات دين من الأديان، أو على هدم مقرّرات الأديان جميعًا، تارة أخرى. وهذا وذاك إسراف كان يجمل بالعلماء أن يجتنبوه. ولقد رأينا مسيحيين دفعهم هذا الإسراف إلى إنكار أن عيسى وُجد على التاريخ، ورأينا آخرين تخطّوْا حدود الإسراف فكتبوا عن جنون عيسى. وإنما دعا إلى هذه النزعة فى أوربا ما بين الكنيسة والدولة من نزاع أدّى برجال العلم وبرجال الدين، كلٌّ من ناحيته، إلى الحرص على الغَلب لاقتناص السلطان والحكم. أما والإسلام برىء من هذا النزاع فليتّق الباحثون من أبنائه سلطان هذه الشهوة التى يخضع لها رجال الغرب، والتى تفسد على العلماء بحوثهم أكثر الأمر، ويجب عليهم لذلك أن يأخذوا حذرهم حين يطّلعون على ما يصدر عن الغرب من مباحث دينية، وأن يمحصوا كل ما يصوّره العلماء على أنه حق. فالكثير منه يتأثر بمقدار غير قليل بهذا الماضى الذى جعل الخصومة متصلة بين رجال الدين ورجال العلم قرونا متوالية.

الاعتماد على كتاب السيرة من المسلمين:

وما ورد فى رسالة هذا المصرى المسلم مما لخصته هنا بالغ الدلالة على وجوب هذا الحذر. فأوّل ما يأخذه علىّ أننى اعتمدت على المراجع العربية والإسلامية واتخذتها أساسًا لبحثى. ولست أنكر ذلك. على أننى قد رجعت إلى كتب المستشرقين ممن ذكرت فى سجل المراجع، لكن المصادر العربية كانت دائمًا الأساس الأوّل لهذا البحث الذى قمت به. وهذه المصادر العربية كانت الأساس الأول كذلك لمباحث المستشرقين جميعًا. وهذا طبيعىّ؛ فهذه المصادر، وفى مقدّمتها القرآن، هى أوّل من تحدّث عن حياة النبى العربى. فلا جرم أن تكون العمدة والأساس لكل من يريد أن يكتب سيرته بأسلوب العصر وطريقته. و«نولدكى» و «جولدزهر» و«فَيل» و«سْپرِنْجَر» و«موير» وغيرهم من

المستشرقين قد جعلوها عمدتهم فى بحثهم كما جعلتها عمدتى فى بحثى. وقد أبحث لنفسى فى تمحيصها ونقدها ما أباحوه لأنفسهم من حرية، كما أننى لم أغفل بعض ما اعتمدوا عليه من كتب المسيحيين الأقدمين وإن أملاها التعصب الدينى للمسيحية ولم يُمْلِها النقد العلمى بحال، فإذا لامنى لائم لأننى لم أتقيد بالنتائج التى وصل بعض المستشرقين إليها، أو لأننى أبحث لنفسى مخالفتهم ونقدهم، فتلك دعوة إلى الجمود العلمى لا تقل رجعية ولا تأخرًا عن أية دعوة إلى الجمود فى الميادين العقلية والروحية جميعًا. وما أحسب أحدًا من المستشرقين أنفسهم يوافق على هذه الدعوة إلى الجمود العلمى، ولو أن أحدهم أقرّها لجاز إقرار الدعوة إلى الجمود الدينى. وهذا وذاك مالا أرضاه لنفسى ولا أرضاه لأحد ممن يريدون الاشتغال بالبحوث التاريخية على وجه علمى صحيح. إنما أعمل وأطالب غيرى أن يعمل على تمحيص ما يقع عليه من مباحث غيره. فإن اقتنع بها عن بينة وبعد أن يقوم لديه الدليل القاطع عليها فذاك، وإلا فليعمل من ناحيته للوصول إلى الحقيقة حتى يقتنع بأنه وصل إليها. هذا ما أدعو إليه شبابنا ورجالنا المعجَبين ببحوث المستشرقين، وهذا ما فعلت؛ ولى أجر المصيب على ما أصبت فيه، ولى عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد فى توخّى السبيل إليها إن أخطأنى التوفيق فى شىء منه.

المستشرقون والمقررات الدينية:

ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المقررات الدينية وإسرافهم فى ذلك ما ذهب إليه كاتب الرسالة المصرى المسلم من أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أن القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها، وأنه حُرّف بعد وفاة النبى وفى صدر الإسلام، وأضيفت إليه أثناء ذلك آيات لأغراض دينية أو سياسية. ولست أناقش صاحب الرسالة من ناحية إسلامية فأحاجُّه، وهو مسلم، بما يقرره الإسلام من أن القرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو يذهب مذهب المستشرقين من أن القرآن كتاب وضعه محمد ﷺ، عن إيمان منه بأن هذا الكتاب وحى الله فى رأى طائفة من هؤلاء المستشرقين، وحرصًا منه على إثبات رسالته بما يذكر من أن هذا القرآن وحى الله إليه فى رأى الآخرين. فلأخاطبه إذًا بلغته على أنه من أحرار الفكر الذين لا يريدون أن يتقيدوا إلا بما يُثبته العلم إثباتًا يقينيًّا.

فرية تحريف القرآن:

هو يعتمد على المستشرقين وما يقولونه. ومن المستشرقين طائفة تزعم بالفعل فى أمر القرآن ما نقله عنهم. لكن زعمهم هذا يدلّ على أنهم إنما تدفعهم إليه أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد. وحسبُك دليلا على ذلك قولهم: إن عبارة «ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمُه أحمدُ»، التى وردت فى الآية السادسة من سورة الصف، إنما أضيفت بعد وفاة النبى لالتماس الدليل على نبوَّة محمد ﷺ ورسالته من الكتب المقدّسة السابقة للقرآن، فلو أن الذين قالوا هذا القول من

المستشرقين كانوا يُخلصون للعلم حقًا لما لجأوا إلى مثل هذا التدليل القائم عندهم على أن التوراة والإنجيل كتابان مقدّسان بالفعل. فلو أنهم كانوا يريدون العلم للعلم لسوَّوا بين القرآن والكتب المقدّسة التى سبقته؛ فإمّا اعتبروه مقدّسًا مثلها، فذكره الكتب المقدّسة التى عرفها الناس قبله طبيعى لا محل لرفضه. وإمّا اعتبروا هذه الكتب كما اعتبروا القرآن وقالوا فى شأنها ما قالوه فى شأنه، وقرّروا أن أصحابها وضعوها لأغراض دينية أو سياسية خاصة. ولو أنهم قالوا مثل هذا القول لقضى المنطق بفساد ما ذهبوا إليه من تحريف القرآن لأغراض سياسية أو دينية، فما كان للمسلمين أن يلتمسوا الحجة من هذه الكتب بعد أن اطمأن ملكهم ودانت لهم الإمبراطورية المسيحية كما دان لهم غيرها من أمم الأرض، وبعد أن دخل المسيحيون فى الإسلام أفواجًا بل أممًا كاملة. هذا هو المنطق الذى يقتضيه البحث العلمى النزيه. أمّا اعتبار التوراة والإنجيل مقدّسين، ونفى هذه الصفة عن القرآن فأمر لا يسوّغه العلم. وأمّا القول بتحريفه التماسًا للحجة من التوراة والإنجيل فهُرَاء لا يقره التاريخ ولا يرضاه المنطق.

والذين زعموا هذا الزعم الفاسد من المستشرقين هم قلة بين أشدّ المستشرقين تعصُّبًا. أما كثرتهم فيقرون بأن القرآن الذى نتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذى تلاه محمد ﷺ على المسلمين أثناء حياته، لم يحرَّف ولم يبدَّل. وهم يحرصون على أن يذكروا هذا وإن أضافوا إليه من عبارات النقد للنظام الذى جُمع القرآن به ولترتيب السور فيه ما لا يدخل تمحيصه فى نطاق هذا البحث. وقد تناول المشتغلون بعلوم القرآن من المسلمين أوجه النقد هذه ودفعوها أما ما نحن الآن فى صدده فحسبنا فيه أن نقتطف بعض ما ذكره المستشرقون عنه، لعله يقنع المصرى المسلم الذى نناقش ها هنا رسالته، ولعله يُقنع الذين يفكرون على شاكلته.

موير ينكر هذه الفرية:

وما أورده المستشرقون من ذلك كثير، نختار منه بعض ما كتبه السير وليم مُوير فى كتابه «حياة محمد». ليرى هؤلاء الذين أسرفوا على التاريخ وعلى أنفسهم شدَّة ما أسرفوا حين اطمأنوا إلى ما قيل عن تحريف القرآن وتبديله. وموير مسيحى شديد الحرص على مسيحيته والدعوة إليها، شديد الحرص لذلك على ألا يدع موضعًا لنقد نبى الإسلام وكتابه دون الوقوف عنده ومحاولة دَعْمِه.

الذاكرة العربية:

يقول سير وليم موير، عند كلامه عن القرآن ودقة وصوله إلينا، ما ترجمته: «كان الوحى المقدس أساس أركان الإسلام فكانت تلاوة ما تيسر منه جزءًا جوهريًّا من الصلوات اليومية عامة أو خاصة، وكان القيام بهذه التلاوة فرضًا وسنة يجزى من يؤديها جزاء دينيًّا صالحًا. ذلك كان جماع الرأى فى السُّنة الأولى، وهو ما يستفاد كذلك من الوحى نفسه. لذلك وعت القرآن ذاكرة كثرة

المسلمين الأولين إن لم يكونوا جميعًا. وكان مبلغ ما يستطيع أحدهم تلاوته بعض المميزات الجوهرية فى العهد الأول للإمبراطورية الإسلامية. وقد يسَّرت عادات العرب هذا العمل؛ فقد كانوا ذوى ولع بالشعر عظيم. ولما كانت الوسائل لتحرير ما يفيض عن شعرائهم فى غير متناول اليد، فقد اعتادوا أن ينقشوا هذه القصائد كما كانوا ينقشون ما يتعلق بأنسابهم وقبائلهم على صفحات قلوبهم. بذلك نمت ملكة الذاكرة غاية النمو، ثم تناولت القرآن بكل ما أدّت إليه يقظة الروح إذ ذاك من حرص وإقبال. ولقد بلغ بعض أصحاب النبىّ من قوة الذاكرة ودقتها ومن التعلق بحفظ القرآن واستذكاره حدًّا استطاعوا معه أن يعيدوا بدقة يقينية كل ما عرف منه إلى يوم كانوا يتلونه.

تحرير القرآن فى عهد النبى ﷺ:

على الرغم من هذه القوة التى امتازت بها الذاكرة العربية فقد كنا فى حل من ألّا نُولى ثقتنا مجموعةً ذلك كل مصدرها. لكن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن أصحاب النبى دوّنوا أثناء حياته نسخًا شتى لأجزاء مختلفة من القرآن، وان هذه النسخ سجَّلت القرآن، سجلته كله تقريبًا. فقد كانت الكتابة معروفة على وجه عام بمكة قبل نبوّة محمد ﷺ بزمن غير قليل. وكان النبى قد استعمل على تحرير الكتب والرسائل أكثر من واحد من أصحابه بالمدينة. وقد فَكّ إسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم أنصار المدينة الكتابة. ومع أن أهل المدينة لم يكونوا مثقفين ثقافة أهل مكة، فقد عُرفت مقدرة الكثيرين منهم على الكتابة قبل الإسلام. ومن اليسير مع ثبوت هذه المقدرة على الكتابة، أن نستنبط غير مخطئين أن الآيات التى وعتها الذاكرة بدقة قد سجلتها الكتابة بمثل هذه الدقة.

«ثم إنا نعرف أن محمدًا ﷺ كان يبعث إلى القبائل التى تدْخل فى الإسلام واحدًا أو أكثر من أصحابه لتعليمهم القرآن وتفقيههم فى الدين. وكثيرًا ما نقرأ أن هؤلاء المبعوثين كانوا يحملون معهم أوامر مكتوبة فى شأن الدين. ولقد كانوا يحملون ما نزل به الوحى بطبيعة الحال، وخاصَّةً ما اتصل منه بشعائر الإسلام وقواعده، وما يتلى منه أثناء العبادة. والقرآن نفسه ينص على وجوده مكتوبًا. وتنص كتب السيرة، حين تذكر إسلام عمر، على وجود نسخة من السورة المتممة للعشرين (سورة طه) فى حيازة أخته وأسرتها. وكان إسلام عمر قبل الهجرة بثلاث سنوات أو أربع. فإذا كان الوحى يُدَوَّن ويُتبادل فى العصر الأول، حين كان المسلمون قليلين وحين كانوا يسامون العذاب، فمن المقطوع به أن النسخ المكتوبة كثر عددها وتداولها حين بلغ النبى أوج السلطة وحين صار كتابه قانون العرب جميعًا.

الرجوع إلى النبى ﷺ عند الخلاف:

«كذلك كان شأن القرآن أثناء حياة النبىّ، وكذلك كان شأنه إلى عام بعد وفاته: بقى مسطورًا

فى قلوب الذين آمنوا به مسجَّلة أجزاؤه المختلفة فى نسخ كانت تزداد كل يوم عددًا. وكان لزامًا أن يتطابق هذان المصدران تمام التطابق. فقد كان القرآن منظورًا إليه، حتى فى حياة النبى، برهبة اليقين بأنه كلام الله ذاته. لذلك كان كل خلاف على نصه يرجع فيه إلى النبىّ نفسه كى يزيله. ولدينا أمثلة من ذلك؛ إذْ رجع إلى النبى عمرو بن مسعود وأبَىّ بن كَعْب. فلما قُبض النبى كان يرجعُ عند الخلاف إلى النصوص المكتوبة، وإلى ذاكرة أصحاب النبى الأقربين وكُتَّاب وحيه.

الجمع الأول للقرآن:

«فلمَّا فُرغ من أمر مُسَيْلمة، فى حروب الردَّة، كانت مذبحة اليمامة قد أتت على كثير من المسلمين ومن بينهم عدد كبير من خير حُفَّاظ القرآن، هنالك ساورت عمرَ المخاوفُ فى أمر الكتاب ونصوصه وما ربما يعلَق بها من ريبة إذا أصاب المقدور من اختزنوه فى ذاكرتهم فماتوا جميعًا. إذ ذاك توجه إلى الخليفة أبى بكر بقوله: «أخشى أن يستحرّ القتل كرَّة أخرى بين حفَّاظ القرآن فى غير اليمامة من المغازى وأن يضيع لذلك كثير منه. والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن». وأقرّ أبو بكر هذا الرأى، وأفضى برغبته فى إنفاذه إلى زيد بن ثابت كبير كتّاب النبى وقال: «إنك رجل شابّ عاقل ولا نتّهمك. كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجْمعه». وإذا كان هذا العمل حدثًا غير متوقع فقد اضطرب زيد بادئ الرأى، وخامره الريب فى صلاحية الإقدام عليه، بل فى مشروعيته. فلم يقم به محمد ﷺ نفسه ولم يأمر أحدًا بالقيام به. على أنه انتهى إلى النزول على ما أبدى أبو بكر وعمر من رغبة ملحَّة. وجَهد فى جمع السوَر وأجزائها من كل جانب، حتى لقد جمع ما كان منها على ورق الشجر وعلى الحجر الأبيض وفى صدور الرجال. ويضيف بعضهم أنه جمع كذلك منها ما كان على الورق وعلى الجلد وعلى عظام الكتف والضلع من الإبل والماعز. وظفرت جهود زيد المتصلة خلال سنتين أو ثلاث بجمع هذه المادة كلها وترتيبها على النحو الذى هى عليه اليوم، وعلى النحو الذى كان زيد يتلو عليه القرآن فى حضرة محمد فيما يقولون. فلما كملت النسخة الأولى عهد بها عمر إلى صيانة حَفْصة ابنته وزوج النبى. وظلّ هذا الكتاب الذى جمعه زيد قائمًا طِيلَة خلافة عمر على أنه النص الصادق الصحيح.

مصحف عثمان:

«على أن الخلاف لم يلبث أن بدأ فى طريقة التلاوة، ناشئًا إما عن الخلاف السابق لنسخة زيد، وإما عن تحريف تَسَرَّبَ إلى النسخ التى نقلت عن نسخته. وفزع العالم الإسلامى لذلك أيَّمَا فزع. فالوحى الذى نزل من السماء «واحد» فأين الآن وحدته؟ ولقد حارب حُذَيْفة فى إرمينية وفى أذربيجان ولاحظ اختلاف القرآن عند السوريين عنه عند أهل العراق، فجزع لتعدُّد ذلك ولمبلغ ما بينه من خلاف، إذ ذاك فزع إلى عثمان كيما يتدخَّل «ليقف الناسَ حتى لا يختلفوا على كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى». واقتنع الخليفة. وليدفع الضرّ لجأ كرّةً أخرى إلى زيد بن ثابت وعزَّزه

بثلاثة من قريش وجيء بالنسخة الأولى من حيازة حفصة، وعرضت القراءات المختلفة من أنحاء الإمبراطورية، وروجعت كلها بأتم عناية للمرة الأخيرة. ولقد كان زيد إذا اختلف مع زملائه القرشيين رجح صوت هؤلاء أن كان التنزيل بلسان قريش، وإن قيل إن الوحى نَزَل على سبع لهجات مختلفة من لهجات العرب. وأرسلت نسخ من هذا المصحف بعد تمام جمعه إلى جميع الأمصار فى الإمبراطورية، وجُمع ما بها من سائر النسخ بأمر الخليفة وأحرق. ورُدَّت النسخة الأولى إلى حيازة حفصة.

«ووصل إلينا مصحف عثمان. وقد بلغت العناية بالمحافظة عليه أنَّا لا نكاد نجد - بل لا نجد - أى خلاف بين النسخ التى لا عداد لها، والمنتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى الفسيحة. ومع ما أدى إليه مقتل عثمان نفسه بعد ربع قرن من وفاة محمد ﷺ، من قيام شيع مغضبة ثائرة زعزعت ولا تزال تزعزع وحدة العالم الإسلامىّ، فإن قرآنًا واحدًا قد ظل دائمًا قرآنها جميعًا. وهذا الإسلام منها جميعًا لكتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة، على أن ما أمامنا اليوم إنما هو النص الذى جمع بأمر الخليفة السيىء الحظ. والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل ثلاثة عشر قرنًا كاملًا بنصِّ هذا مبلغ صفائه ودقَّته. والقراءات المختلفة قليلة إلى حد يثير الدهشة. وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف، وهذه مسائل أبدعت فى تاريخ متأخر، فلا مساس لها بمصحف عثمان.

وحدة الإسلام فى عهد عثمان:

«والآن وقد تبين أن القرآن الذى نتلو هو نص مصحف عثمان لم يتغير، فعلينا أن نبحث: أهذا النص هو صورة مضبوطة لما جمع زيد بعد الاتفاق على إزالة ما كان فى التلاوة من أوجه خلاف قليلة العدد قليلة الخطر؟ وكل ما لدينا مقنع تمام الإقناع بأن الأمر كذلك. فليس فى الأنباء القديمة أو الجديرة بالتصديق ما يُلقى على عثمان أية شبهة بأنه قصد إلى تحريف القرآن لتأييد أغراضه. صحيح أن الشيعة ادّعوا من بعدُ أنه أغفل بعض آيات تزكى عليًّا. لكن العقل لا يسوغ هذا الزعم؛ فلم يكن قد نجم أى خلاف بين الأمويين والعلويين حين أقرّ مصحف عثمان، بل كانت وحدة الإسلام قائمة حينذاك لا يهدّدها شيء. ثم إن عليًّا لم يكن قد صوّر مطالبه فى صورتها الكاملة؛ فلم يكن غرض من الأغراض إذًا ليدفع عثمان إلى ارتكاب إثم ينظر إليه المسلمون بعين المقت غاية المقت. ولقد كان عددٌ كبير ممن وعت قلوبهم القرآن كما سمعوه حين تلاه النبى أحياء حين جمع عثمان المصحف. فلو أن آيات تزكى عليًّا كانت قد نزلت لَوُجِدَت نصوصها بين يدى أنصاره الكثيرين. وهذان السببان كانا كفيلين بالقضاء على كل محاولة لإغفال هذه الآيات. يضاف إلى ذلك أن شيعة علىّ استقلّوا بأمرهم بعد وفاة عثمان وبايعوا عليًّا بالخلافة. أفيقبل العقل أنهم، وقد وصلوا إلى السلطة، يرضون عن قرآن مبتور، ومبتور قصدًا للقضاء على أغراض زعيمهم!؟ مع

ذلك ظلّوا يتلون القرآن الذى يتلوه خصومهم، ولم يثيروا أى ظل من الاعتراض عليه؟ بل إن عليًّا قد أمر بأن تنشر نسخ كثيرة منه، ويقال إنه كتب بخط يده عددًا منها. صحيح إن الثائرين قد جعلوا من أسباب انتقاضهم أن عثمان جمع القرآن وأمر بإهلاك ما سوى مصحفه من المصاحف. واعتراضهم إنما ينصبّ على إجراءات عثمان لذاتها ويعتبرونها محرّمة لا تجوز. لكن لم يشر أحد فيما وراء ذلك إلى تحريف فى المصحف أو إبدال؛ فمثل هذا الزعم كان ظاهر الفساد يومئذ؛ وإنما أبدعه الشيعة من بعدُ لأغراضهم.

دقة مصحف عثمان وكماله:

«نستطيع أن نستنبط إذًا مطمئنين أنّ مصحف عثمان كان وما يزال صورة مضبوطة لما جمعه زيد بن ثابت، مع مزيد فى التوفيق بين الروايات السابقة له وبين لهجة قريش، ثم استبعاد سائر القراءات التى كانت منتشرة فى أنحاء المملكة. مع ذلك لاتزال أهمّ مسألة قائمة أمامنا؛ هذه المسألة هى: هل كان ما جمعه زيد صورة صادقة كاملة لما أوحى إلى محمد ﷺ؟ والاعتبارات الآتية تبعث اليقين بأنه كان مجموعة صادقة بلغت من حيث إنها كاملة كل ما يمكن بلوغه يومئذ:

«أولا – تمّ الجمع الأول برعاية أبى بكر. وكان أبو بكر تابعًا صادق الإخلاص لمحمد ﷺ كما كان مؤمنا كامل الإيمان بالمصدر القدسى للقرآن؛ وكان اتصاله الحميم بالنبى خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته، ومظهره فى الخلافة مظهر البساطة والحكمة والتنزه عن المطامع، بحيث لا تدع موضعًا لأى فرض آخر. وكان إيمانه بأن ما يوحى إلى صاحبه إنما يوحى إليه من الله ذاته، مما يجعل أول أغراضه أن يكفل جمع هذا الوحى كله مطهرًا كاملاً. ومثل هذا القول يصدُق على عمر، وقد تمّ الجمع فى خلافته. وهذا القول يصدق كذلك على المسلمين يومئذ جميعًا، لا تفاوت لديهم فيه بين الكاتبين الذين عاونوا على هذا الجمع وبين المؤمن الرقيق الحال الذى يحمل إلى زيد ما عنده من الوحى المكتوب على العظام أو على أوراق الشجر؛ فقد كانوا جميعًا تتساوى رغبتهم الصادقة فى استظهار العبارات والألفاظ التى تلاها عليهم نبيهم على أنها رسالة من عند الله. وقد كان الحرص على الدقة قائمًا بشعور الناس جميعًا؛ لأنه لم ينغرس فى نفوسهم شىء ما انغرس هذا التقديس المرهب لما يعتقدونه كلمة الله. وفى القرآن نُذُرٌ للذين يفترون على الله الكذب أو يُخفون شيئًا من وحيه. ولسنا نستطيع أن نصدّق أن يجرؤ المسلمون الأوّلون، فى حماستهم الأولى لدينهم وتقديسهم إياه، على التفكير فى أمر ذلك مبلغه من مجافاة الإيمان.

«ثانيًا – تمّ الجمع خلال سنتين أو ثلاث سنين بعد وفاة محمد ﷺ؛ وقد رأينا طائفة من أتباعه يحفظون الوحى كله عن ظهر قلب، وأن كل واحد من المسلمين كان يحفظ طائفة منه، وأن جماعة من القرّاء كانت تعينهم الدولة وتبعث بهم إلى أنحاء المملكة الإسلامية لإقامة الشعائر ولتفقيه الناس فى الدين. من هؤلاء جميعًا تكوّنت حلقة اتصال بين ما تلا محمد من الوحى يوم تلاه وبين ما جمعه

زيد. فالمسلمون لم يكونوا صادقى القصد فى جمع القرآن كله فى مصحف واحد فحسبُ، بل كانت لديهم كذلك كل الوسائل التى تكفل تحقيق هذا الغرض، وتكفل تحقيق ما اجتمع فى الكتاب الذى وضع بين أيديهم بعد جمعه من دقّة وكمال.

«ثالثًا – ولدينا ضمان أوفى للدقة والكمال. ذلك ما كان موجودًا منذ حياة محمد من أجزاء القرآن المكتوبة، والتى كثر لا شك عدد نسخها قبل جمع القرآن. وأكثر الأمر أن هذه النسخ كانت موجودة فى حيازة جميع الذين يستطيعون القراءة. أما ونحن نعرف أن ما جمعه زيد قد تداوله الناس وتلوه بعد جمعه مباشرة. فمن المعقول أن نستنبط أنه تناول ما احتوته هذه الأجزاء المكتوبة جميعًا واتفق معها؛ لذلك حلَّ محلَّها بإقرارهم جميعًا. فلم يتصل بنا أن الجامعين أغفلوا أجزاء أو آيات أو ألفاظًا، أو أن شيئًا مما كان موجودًا من هذه اختلف عما حواه المصحف الذى جُمع. ولو أن شيئًا من ذلك كان، للوحظ بلا ريب ولدُوّن فى هذه المساند القديمة التى احتوت أدقّ أعمال محمد ﷺ وأقواله، والتى لم تُغفل منها حتى ما كان قليل الخطر.

«رابعًا – محتويات القرآن ونظامه تنطق فى قوة بدقة جمعه؛ فقد ضُمّت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمُّل ولا فنّ فيها. وهذا الجمع لا أثر فيه لید تحاول المهارة أو التنسيق. وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض.

«والنتيجة التى نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقًا فحسبُ، بل كان، كما تدلّ الوقائع عليه، كاملًا، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أىّ شىء من الوحى. ونستطيع كذلك أن نؤكد، استنادًا إلى أقوى الأدلّة، أن كل آية من القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد ﷺ».

* * *

أطلنا فى اقتطاف عبارات «سير وليم موير» كما وردت فى مقدمة كتابه «حياة محمد»[1]. على أن ما اقتطفناه يُغنينا عن ذكر ما كتبه «الأب لامَنْس» و «هون هامر» ومن يرون هذا الرأى من المستشرقين. هؤلاء جميعًا يقطعون بدقة القرآن الذى نتلوه اليوم، وبأنه يحتوى كل ما تلاه محمد ﷺ على أنه الوحى الذى تلقاه من ربه صادقًا كاملا. فإذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم وزعموا أن القرآن حُرّف، غير آبهين لهذه الأدلة العقلية التى ساقها «موير» وكثرة المستشرقين، والتى أخذوها عن التاريخ الإسلامى والعلماء المسلمين كان ذلك تجنيًا على الإسلام لم يُملْه غير الحقد على الإسلام وعلى صاحب الرسالة الإسلامية. ومهما يبلغ المتجنون من البراعة فى

(١) راجع موير «حياة محمد» ص XIV إلى XIXX.

صياغة تجنِّيهم فلن يستطيعوا أن يخلعوا عليه ثوب البحث العلمى النزيه، ولن يستطيعوا أن يخدعوا به من المسلمين أحدًا، اللهم إلا الشبان الذين يتوهمون أن البحث الحرّ يقتضيهم أن ينكروا ماضيهم، وأن يُفْتَنوا عن الحق بما يُزَيَّن لهم من الأباطيل وأن يؤمنوا بكل مطعن على هذا الماضى، ولو لم يكن لهذا الطعن ما يسوّغه من حقائق العلم والتاريخ.

كنا نستطيع أن نسوق هذه الحجج التى ساقها «السير موير» وغيره من المستشرقين، وأن نأتى بها من التاريخ الإسلامى ومما كتب علماء المسلمين، وأن نردها إلى مراجعها فيها. لكنا آثرنا نقلها عن أحد المستشرقين لنظهر شبابنا المولع بكل آثار الغرب، من غير تمحيص لها، على أن الدقّة فى البحث العلمى وحسن القصد إلى الحق وحده جديران بهداية من يسلك سبيلهما مخلصًا للحقيقة المجرَّدة من كل زيف، ونَدُلَّه على أن واجب المحقق أن يدقق فى بحثه حتى يصل من الحقيقة إلى غايته دون تأثر بهوًى أو شهوة، ومن غير أن يقف به التقليد أو القصور عن بلوغ هذه الغاية. وقد وفّق المستشرقون للحق فى بعض الأحيان، وقصر همهم دونه فى أحيان أخرى. وكذلك كان أكثرهم فى مسائل متصلة بحياة النبى العربى أتيح لنا تمحيصها فى هذا الكتاب.

الطريقة الصحيحة فى البحث:

ويجمل بنا فى هذا المقام أن نذكر أن واجب الباحث ألّا يُثبت مسألة من المسائل وألّا ينفيها، قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه إلى الاقتناع الذاتى الصحيح بأنه اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة. وشأن المؤرخ فى ذلك شأن العالم فى الأمور الطبيعية وفى غيرها من العلوم جميعًا. وهذا واجبه، تَنَاوَلَ كتب المستشرقين أو تناوَل كتب العلماء المسلمين. وإذا أوجب قصد الحق والمعرفة علينا أن ننقد وأن نمحّص ما خلّف كتّاب العرب والكتّاب المسلمون فى الطب والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم، فننفى منها ما لا يثبت أمام النقد العلمى ونُثبت ما تقرّه قواعد هذا النقد، فقصد الحق والمعرفة يوجب علينا مثل هذه الدقة فى أمر التاريخ وإن تعلّق بسيرة النبى عليه الصلاة والسلام. فالمؤرخ ليس ناقلا فحسب، بل هو أيضًا ناقد لما ينقل، ممحّص إياه لمعرفة ما ينطوى عليه من الحق. والنقد سبيل التمحيص. والعلم والمعرفة أساس هذا النقد والتمحيص.

أحسبنا، بعد هذا التمحيص الذى نقلناه فى شأن القرآن ودقته، فى حِلّ من إغفال ما جاء فى رسالة ذلك المصرى المسلم، المؤمن بكل ما يكتب المستشرقون، عن آيات يزعمون أنها أضيفت إلى القرآن أو عن اسم النبىّ وأنه لم يكن قُثَم أو قثامة، فهذا كلام لم يُمْلِه الحق بل أملاه الهوى الذى أملى دعوى تحريف القرآن.

ونعود إلى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم. فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلّتهم على أن النبىّ كان يصاب بالصَّرْع وأن أعراضه كانت تبدو عليه؛ إذ كان يغيب

عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات وتخرج من فمه الرّغوة، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله إليه، فى حين لم يكن هذا الوحى إلا أثرًا من نوبات الصرع.

فرية الصرع:

وتصوير ما كان يبدو على محمد ﷺ فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ. فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أىَ ذكر لما مرّ به أثناءها؛ ولا يذكر شيئًا مما صنع أو حلّ به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل. وهذه أعراض الصرع، كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى ﷺ أثناء الوحى، بل كانت تنتبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبهًا لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه. هذا، ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتمًا بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه، بل كان كثيرًا ما يحدث والنبىُّ فى تمام يقظته العادية، وحَسْبُنا أن نشير إلى ما أوردنا فى هذا الكتاب عن نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحُدَيبية.

ينفى العلم إذًا أن الصرع كان يعترى محمدًا؛ ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افترَوْا على القرآن أنه حُرّف. وهم لم يقولوا به حرصًا على حقيقة يتلمسونها، وإنما قالوا به ظنًا منهم أنهم يحطّون من قدر النبى العربى فى نظر طائفة من المسلمين. أم حسبوا أنهم يُلقون بأقوالهم هذه ظلا من الريبة على الوحى الذى نزل عليه، لأنه نزل عليه فيما يزعمون أثناء هذه النوبات؟ إن يكن ذلك فهو الخطأ البين، كما قدمنا، وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار.

الرجوع إلى العلم:

ولو أن نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما حمّلوا العلم ما ينكره. وهم إنما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصرع، والذين تُمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب وعن الرجوع إلى كتبه. ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصودًا أو غير مقصود، ولتبينوا أن النشاط الروحى والعقلىّ للإنسان يختفى تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع، ويذر صاحبَه فى حالة آلية محضة يتحرّك مثل حركته قبل نوبته، أو يثور إذا اشتدت به النوبة فيصيب غيره بالأذى، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحلّ به، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته أثناء نومه؛ فإذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئًا. وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحىّ قوى قاهر يصل صاحبَه بالملأ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقينى،

ليُبلغ من بعد ما أوحى إليه. فالصرع يعطل الإدراك الإنسانى وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس. أما الوحى فسموٌ روحىٌ اختص الله به أنبياءه ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كى يبلغوها للناس. وقد يصل العلم إلى إدراك بعض الحقائق ومعرفة سُنَنها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها، على حين تظل قلوبٌ عليها أقفالُها جاهلة إياها لغفلتها عنها.

قصور العلم أحيانًا:

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقون. إن الوحى ظاهرة نفسية شاذة فى تقدير علمنا وما وصل إليه حتى اليوم؛ فمن المتعذر إذًا تفسيرها على طريقته لكن هذا القول إنما يدل على أن علمنا – على ما انفسح مداه واتسع أفقه – لا يزال قاصرًا عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية والنفسية. ولا عيب على العلم فى هذا ولا عجب منه؛ فعلمنا ما يزال قاصرًا عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا، وطبيعة الشمس والقمر وغيرهما من الأفلاك والكواكب لا يزال أمر العلم فيها عند الفروض والاستنباطات؛ وهذه الأفلاك جميعًا بعض ما تشهده العين المجردة، وما تكشف الآلات المقرّبة لنا عن كثير من خفاياها. وإلى قرن مضى كانت مخترعات كثيرة تعتبر بعض إبداع الخيال فلا سبيل إلى أن تتجسَّد أمامنا، وها هى ذى تجسدت وصرنا نحسبها من البسائط. والظاهرات الروحية والنفسية هى اليوم موضع ملاحظة العلماء، لكنها لم تخضع بعد لسلطان العلم كى يستنبط قوانينها الثابتة. وكثيرًا ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء وأثبتوها ثم أثبتوا معها أنهم لا يجدون لها فى السنن الكونية التى استنبطها العلم تأويلا تطمئن إليه قواعده. فعلم النفس ما يزال بوجه عام، غير ثابت السنن فى كثير من الشئون التى تعرض له. فإذا كان هذا واقعًا فى الحياة العادية، كان البدار إلى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة وإسرافًا معيبًا.

ولقد كان الوحى بعض ما شهد المسلمون أثناء حياة محمد ﷺ، وكان القرآن كلما ذكره لهم زادهم به إيمانًا. وكان منهم أذكياء غاية الذكاء، وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبى العربى، ثم آمنوا برسالته ولم يُنكروا عليه من أمر الوحى شيئًا. ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ثم أقروا أنه ليس بساحر ولا بمجنون وتابعوه وآمنوا بما جاء به. أما وذلك ثابت يقينًا، فما يأباه العلم وتتنزه عنه قواعده إنما هو إنكار حدوث الوحى، والحط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرها. والعالم النزيه القصد إلى الحق لا يستطيع أكثر من أن يقرّر أن ما وصل إليه العلم حتى هذا الزمان يقصُر دون تفسير الوحى على الطريقة العلمية، ولكنه لا يمكنه أن ينكر بحال من الأحوال حدوث ظاهرات هذا الوحى مما وصف أصحاب النبى

وكتّاب الصدر الأوّل للإسلام، فإن أنكرها وحاول تأويلها واتخذ العلم باطلًا وسيلة إلى ذلك كان مبطلا متعنتًا. والتعنت والعلم لا يتّفقان.

الطعن فى محمد ﷺ عجز عن الطعن فى رسالته:

ولئن دلَّ هذا العنت على شىء لَعلى شدة حرص أصحابه على التشكيك فى الإسلام، وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين وقد رأوه دينًا بلغ غاية السموّ مع بساطة ويسرها مصدر قوّته؛ لذلك لجأوا إلى حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقى إليه، فهو يتناول مَنْ صدر هذا الأثر عنه أو كان وسيلته إلى الناس فيجعله هدف مطاعنه، وهذا عجز لا يلجأ إليه عالم، وهو بعدُ مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية. ففى طبيعة الناس أن يُعْنَوْا بالآثار لذاتها، وأن يستمتعوا بثمراتها دون بحث لا طائل تحته فى مصدرها ووسيلة حدوثها ونموها. وهم لذلك لا يُعَنُّون أنفسهم بالبحث فى أصل الشجرة التى أنبتت الثمرة التى تُعجبهم، ولا فى السماد الذى أدّى إلى ازدهارها، ما داموا لا يفكرون فى غرس شجرة مثلها أو شجرة أشهى منها ثمرًا. وهم حين يبحثون فى فلسفة «أفلاطون» أو مسرحيات «شكسبير» أو عن «رفائيل» لا يتلمّسون المطاعن فى حياة هؤلاء العظماء عنوان مجد الإنسانية وفخارها حين لا يجدون على هذه الآثار مطعنًا، فإذا تلمّسوا المطاعن التى لا سند لها من الحق، لم يبلُغوا من ذلك غايتهم وإن كشفوا عن سوء رأى وحقد يُسقط حجتهم ويحول دون الاستماع لهم. ولن يغيِّر من ذلك أن يُفْرَغ هذا الحقد فى قالب العلم؛ فالحقد لا يعرف الحقيقة. وكبُرت الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدرًا. وهذا شأن مطاعن أولئك المستشرقين على النبى العربى خاتم المرسلين؛ ولذلك هوت مطاعنهم إلى الحضيض.

فرغت الآن من تفنيد رأى أولئك المستشرقين الذين استندت إليهم رسالة ذلك المصرى المسلم، وأقمت الدليل على فساده، فلأنتقل إلى طائفة أخرى من الملاحظات التى أبداها بعض المشتغلين بالعلوم الدينية من المسلمين بعد ظهور الطبعة الأولى.

وأكبر ظنى ألا تتكرر أمثال هذه المطاعن الوضيعة التى يأباها العلم وينكرها. فربما كان لهؤلاء المستشرقين من العذر عن إسرافهم من قبلُ أنهم كانوا يحسبون أنهم يكتبون للأوربيين المسيحيين، وأنهم كانوا يقومون لذلك بواجب قومى أو بواجب دينى تمليه عليهم عقيدتهم وتدفعهم إلى اتخاذ العلم بغيًا وسيلتهم إلى أدائه. أمّا اليوم، وقد توثّقت أسباب الاتصال بالبرق والإذاعة، وبعد أن وثقت الصحافة والطباعة بين أجزاء العالم، فقد أصبح ما ينشر وما يقال فى أوربا أو فى أمريكا يعرف ليومه أو لساعته فى بلاد الشرق جميعًا. فواجب على الذين يريدون الاضطلاع برسالة المعرفة والحقيقة أن ينزعوا عن عيونهم وعن قلوبهم غشاوة الحواجز القومية أو الجنسية أو الدينية، وأن يقدّروا أن ما يقولونه أو يكتبونه سرعان ما يصل علمه إلى الناس جميعًا فيتناولونه فى مختلف بلاد الأرض بالنقد والتمحيص. فلتكن الحقيقة غير المقيَّدة بأى قيد هى رائدنا جميعًا، ولنوجه كل همنا

إلى أن نربط ما بين ماضى الإنسانية ومستقبلها، على أنها وحدة كبرى لا تُفَرّق بينها القوميات ولا الجنسيات ولا الأديان برابطة ترمى إلى تحقيق أسمى غاية تطلعت إليها الإنسانية منذ نشأتها، رابطة الإخاء الحرّ فى ظل الحق والجمال. فتلك وحدها هى الرابطة التى تكفل هداية الإنسانية فى سيرها الحثيث نحو السعادة والكمال.

أصحاب الملاحظات من المشتغلين بالشئون الإسلامية:

بَيْنَا يأخذ علينا غلاة المصدّقين لِما أسرف فيه المستشرقون أنا نعتمد على المصادر العربية ونستند إلى ما ورد فيها، إذا بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية يأخذون علينا أننا نرجع إلى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ما سجّلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى العربى، وأننا لا ننهج نهج هذه الكتب.

وعلى هذا الأساس أبدى بعضهم ملاحظات فى أكثرها رفق ومجادلة بالتى هى أحسن ابتغاء الوصول إلى الحق، وفى بعضها عنت أو جهل لا يرضى أيهما لنفسه من أوتى حظًّا من العلم. أما الذين جادلوا فى رفق فتنصرف أكثر ملاحظاتهم إلى أننا لم نذكر ما ورد فى كتب السيرة والحديث من المعجزات، بل قلنا فى خاتمة الطبعة الأولى:

«فحياة محمد ﷺ حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ. ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحَى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، ويصارح أصحابَه بذلك» وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر: «إنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه مَنْ سبقه من أصحاب الخوارق. وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندًا حين ينكرون من حياة النبى العربى كلها ما لا يدخل فى معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله وأن سُنَّة الله لن تجد لها تبديلا، غير متفق مع تعبير القرآن للمشركين أنهم لا يفقهون؛ أن ليست لهم قلوب يعقلون بها. ومن هؤلاء المجادلين فى رفق من يأخذ علينا أننا أوردنا مطاعن المستشرقين على النبى مقدمة للرد عليها؛ وإيراد هذه المطاعن لا يتفق مع ما يجب فى نظرهم، للنبى عليه السلام من إكبار وإكرام.

الصلاة على النبى ﷺ:

أما الذين لجئوا إلى العنت فقد ظهروا قبل أن تظهر طبعة الكتاب الأولى، وقبل أن يجمع هذا البحث فى كتاب، وأشد ما استطاعوا أن يأخذوه علىّ أننى جعلت عنوان بحثى «حياة محمد»، من غير أن أردف هذا العنوان بالصلاة والسلام على رسول الله، وإن ذكرتها غير مرة فى غضون

البحث. وكنت أحسبهم يرجعون عن عنتهم بعد أن زيَّنت عنوان الطبعة الأولى بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] وبعد أن تناول الكتاب السيرة على الطريقة التى تناولها بها. لكنهم أصرّوا على ملاحظتهم، فدلوا بذلك على تعنتهم وعلى جهلهم مع ذلك بحقائق الإسلام اكتفاء منهم باتباع ما وجدوا عليه آباءهم.

ونبدأ بدفع هذه الملاحظة الخاطئة آملين ألّا يعود أصحابها وألّا يعود غيرهم إلى إبدائها على أى كتاب يظهر وإنما ندفعها بالرجوع إلى كتب الأئمة من علماء المسلمين حتى يعرف الناس جميعًا سمو الإسلام فوق القيود اللفظية ويقدروا قيمة الحديث: «إنّ هذا الدين متينٌ فأَوْغِل فيه برفْق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى». فقد ذكر أبو البقاء فى «كلياته» أن «كتابة الصلاة فى أوائل الكتب قد حدثت فى أثناء الدولة العباسية، ولهذا وقع كتاب البخارىّ وغيره عاريًا عنها». وكثرة الأئمة على أن الصلاة على النبى ﷺ يكفى أن يذكرها المرء مرةً واحدة فى حياته. قال ابن نجيم فى «البحر الرائق»: «وأما مُوجَب الأمر فى قوله تعالى: ﴿صَلُّوا عليه﴾ فهو افتراضها فى العمر مرةً واحدة فى الصلاة أو خارجَهَا؛ لأن الأمر لا يقتضى التكرار، وهذا بلا خلاف». والخلاف بين الشافعى وغيره على وجوب الصلاة على النبى أثناء الصلاة لا خارجها. والصلاة هى الدعاء: ومعناها فى الآية أن يترحم الله على النبى ويسلّم». هذا ما أورده علماء المسلمين وأئمتهم فى هذا الموضوع. وهو يدلّ على إسراف الذين يزعمون وجوب الصلاة على النبى كلما ذكر اسمه وكلما كتب، وعلى خطئهم خطأ ما كانوا يقعون فيه إذا عرفوا ما قدمنا وأن كبار المحدثين لم يكونوا يكتبون الصلاة فى أوائل الكتب.

دفع المطاعن وطريقته:

أما الذين قالوا بأن مقام النبى الكريم ﷺ يوجب عدم ذكر مطاعن المستشرقين والمبشرين عليه مقدمةً للرد عليها، فلا سند لهم فى قولهم هذا إلا عاطفة إسلامية يحمدون عليها؛ أما من الناحيتين العلمية والدينية فلا سند لهم، والقرآن الكريم يذكر ما كان يقول المشركون عن النبى ﷺ ويدفعه بالحجة البالغة. هذا، وأدب القرآن أقوم أدب وأسماه؛ فهو يذكر اتهام قريش محمدًا بالسحر والجنون، وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُم يقولون إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدونَ إليه أَعْجَمِىٌّ وهذا لِسَانٌ عربىٌّ مُبِينٌ﴾[2]. وهو يجرى فى ذلك بالشىء الكثير. ثم إن الحجة لا تدفع علميًّا إلا إذا ذُكرت ودوّنت بأمانة ودقة. ولقد قصدت من هذا الكتاب إلى البحث العلمى توخيًا للحقيقة العلمية وحدها. وقصدت به إلى أن يقرأه المسلمون وغير المسلمين آملًا أن أقنعهم جميعًا بهذه الحقيقة العلمية. ولا تُبْلَغ هذه الغاية إلا إذا كان الباحث نزيهًا فى حرصه على الحقيقة، لا يتقيد باعتبار غير هذا الحرص، ولا يتردد فى الاعتراف بالحق أيًّا كان مصدره.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٦.

(٢) سورة النحل آية ١٠٣.

كتب السيرة وكتب الحديث:

ونعود إلى المأخذ الأول، الذى أخذه علىّ بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية فى رفق ومجادلة بالتى هى أحسن. ذلك قولهم إننى لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج فى التعبير عن مختلف الحوادث نهجها. ولقد كان يكفينى ردًّا على هذا أننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر، وأننى أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون. وما كان لى، وذلك شأنى، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها، وبين هذين وبين النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيمٌ؛ أيْسَرُه أن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحًا بالقدر الذى يباح به اليوم، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى. كان يكفينى هذا تسويغًا للطريقة التى عالجت بها بحثى ودفعًا لكل اعتراض عليه، لكنى رأيت من الخير أن أتبسَّط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة المسلمين فيما مضى، وتدعوهم اليوم، كما تدعو كل باحث مدقق، إلى عدم الأخذ جزافًا بكل ما ورد فى كتب السيرة وفى كتب الحديث، وإلى التقيد بقواعد النقد العلمى تقيدًا يعصم من الزلل ما استطاع الإنسان أن يعصم نفسه منه.

الخلاف بين هذه الكتب:

وأوَّل هذه الأسباب ما بين هذه الكتب من خلاف فى رواية الكثير من الأمور المنسوبة إلى النبىّ العربىّ منذ مولده إلى وفاته؛ فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء، كان يزيد وينقص دون مسوّغ إلا اختلاف الأزمان التى وضعت هذه الكتب فيها. فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها. وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعدًا عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين. وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم تُغفل كثيرًا مما ذكره أبو الفِداء فى تاريخه، ومما ذكره القاضى عياض فى كتاب الشفاء، ومما ذُكر فى كتب المتأخرين جميعًا. وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها؛ فبعضها يروى قصة من القصص، وبعضها يُغفلها وبعضها يضعفها. فلابدّ للباحث فى هذه الكتب جميعًا بحثًا علميًّا أن يضع مقياسًا يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه. فما صدَّقه هذا المقياس أقرَّه الباحث، وما لم يصدّقه وضعه موضع التمحيص إذا كان مما يقبل التمحيص.

وقد أخذ السلف بهذه الطريقة فى بعض الأمور وأغفلوها فى بعضها. من ذلك قصة الغرانيق التى تذهب إلى أن النبى ﷺ لمَّا ضاق ذرعًا بسادات قريش تلا عليهم سورة النجم، حتى إذا بلغ منها

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى. ومناة الثَّالثة الأُخْرَى﴾[1] قرأ: «تلك الغرانيقُ العلا، وإن شفاعتهن لترتجى»، ثم مضى فى قراءة السورة إلى آخرها وسجد فسجد المسلمون والمشركون معه هذه القصة رواها ابن سَعْد فى طبقاته الكبرى ولم يعرض لها بنقد. ووردت فى الصحيح من بعض كتب الحديث مع اختلاف فى الرواية عن الغرانيق. أمَّا ابن إسحاق فروى هذه القصة وقال: إنها من وضع الزنادقة. وذكرها ابن كثير فى كتاب «البداية والنهاية فى التاريخ» فقال: «ذكروا قصة الغرانيق، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحًا لئلا يسمعها من لا يضعها فى موضعها إلا أن أصل القصة فى الصحيح»، ثم ذكر حديثًا عن البخارى فى أمرها وأردفه بقوله: «انفرد به البخارى دون مُسلم». أما أنا فلم أتردد فى نفى القصة من أساسها والاتفاق مع ابن إسحاق فى أنها من وضع الزنادقة؛ وسقت فى تفنيدها أدلَّةً لم أكتف فيها بما فى هذه القصة من نقض ما للرسل من عصمة فى تبليغ رسالات ربهم، بل استعنت فيها كذلك بقواعد النقد العلمى الحديث.

العصر الذى كتبت فيه:

وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف ونقده نقدًا دقيقًا على الطريقة العلمية، أن أقدمَها كتب بعد وفاة النبى ﷺ بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعضَ وسائلها إلى الذيوع والغلب: فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سببًا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودوّنوا ما اعتقدوه صحيحًا منه من جهد وعنت أدّى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصًا لا يتطرّق إليه ريب. ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاقّ وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تُربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف، وهذا معناه أنه لم يصحّ لديه من كل مائة وخمسين حديثًا إلا حديث واحد. أمَّا أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة. وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث. وكثير من هذه الأحاديث التى صحَّت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفى الكثير منها، كما كان الشأن فى مسألة الغرانيق. فإذا كان ذلك شأن الحديث، وقد جَهد فيه جامعوه الأوّلون ما جهدوا، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة؟ وكيف يستطاع الأخذُ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه!

أثر المنازعات السياسية الإسلامية:

والواقع أن المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدّت إلى اختلاق

---

(١) آيتا ١٩، ٢٠.

كثير من الروايات والأحاديث تأييدًا لها. فلم يكن الحديث قد دُوّن إلى عهد متأخر من عصر الأمويين. وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه، ثم لم يجمع إلا فى عهد المأمون بعد أن أصبح «الحديث الصحيح فى الحديث الكذب كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود» على قول الدَارَقُطْنِيّ. ولعل الحديث لم يجمع فى الصدر الأوّل من الإسلام لما كان يروى عن النبىّ أنه قال: «لا تكتبوا عنى شيئًا غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليَمْحُه».

جمع الحديث:

على أن أحاديث النبىّ كانت متداولة على الألسن من يومئذ، وكانت الروايات تختلف فيها. ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال فى ذلك بأن يكتب السنن؛ فاستفتى أصحاب النبى ﷺ فى ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها. فطفق عمر يستخير الله شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له[1] فقال: «إنى كنت أريد أن أكتب السنَن وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدًا» وعدل عن كتابتها، وكتب فى الأمصار عنها: «من كان عنده شىء فليَمْحُه». وظلّت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول، حتى جُمِع ما صح لدى الجامعين منها فى عهد المأمون.

القياس الصحيح للحديث:

ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقّة لا ريب فيه، فقد جرّح بعض العلماء كثيرًا من الأحاديث التى أثبتها جامعوها على أنها صحيحة. قال النووىّ فى شرح مسلم: «استدرك جماعة على البخارى ومُسْلِم أحاديث أخَلًّا بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه». ذلك أن الجامعين قد جعلوا مقياس السَّنَد والثقة بالرواية أساسهم فى قبول الحديث أو رفضه؛ وهو مقياس له قيمته؛ لكنه وحده غير كاف. وعندنا أنّ خير مقياس يقاس به الحديث، وتقاس به سائر الأنباء التى ذكرت عن النبىّ، ما روى عنه عليه السلام أنه قال: «إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله.. فما وافقه فمنى، وما خالفه فليس عنى». وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى، وما زال المفكرون منهم يأخذون به إلى يومنا الحَاضر. قال ابن خلدون: «وإننى لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابىّ يخالف ظاهر القرآن وإن وثّقوا رجاله؛ فرب راوٍ يُوثَّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن. ولو انْتُقِدَت الروايات من جهة فحوى متنها، كما نُنْتَقَد من جهة سندها، لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة أو البرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات». وهذا المقياس الذى جاء فى حديث النبى ﷺ، والذى ذكره ابن خلدون فيما تقدّم، يتفق مع قواعد النقد العلمى الحديث أدقّ اتفاق.

---

(١) أى خلق له أسباب العزم من القوة والصبر.

ومن الحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبى ﷺ حدًّا دعا الدعاة فيهم إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات. ومنذ قتل أبو لؤلؤة غلام المغيرة عمرَ بن الخطاب، ومنذ تولَّى عثمان بن عفان الخلافة، بدأت الخصومة التى كانت بين بنى هاشم وبنى أمية قبل رسالة النبىّ العربى تظهر من جديد. فلما قُتل عثمان وقامت الحرب الأهليَّة بين المسلمين وخاصمت عائشة عليًّا وأيَّدَ عليًّا من أيَّدَ، بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر إلى حد أنكره علىُّ بن أبى طالب، حتى رُوى عنه أنه قال: «ما عندنا كتابٌ نقرؤه عليكم إلا ما فى القرآن وما فى هذه الصحيفة أخذتُها من رسول الله فيها فرائض الصَّدقة». على أن ذلك لم يقف رُواة الحديث عن روايته، ولم يقف قومًا عن وضع الحديث لِهوى يدعون الناس إليه، أو لفضائل يزعمون أن الناس أحرص على اتباعها حين يُنسب إلى رسول الله حديثُها. فلما استتبَّ الأمر لبنى أميَّة جعل المحدثون المتصلون ببنى أمية يضعفون ما يروى عن علىّ بن أبى طالب وفضائله، فى حين جعل أنصار علىّ وأهل بيت النبىّ يزيدون فى هذه الأحاديث ويحاولون إذاعتها بكل الوسائل، كما جعلوا يُعرضون عما يروى عن عائشة أمّ المؤمنين. ومن طريف ما يروى فى ذلك ما رواه ابن عَساكر عن أبى سعد إسماعيل ابن المُتَنَّى الإستراباذىّ؛ إذ كان يعظ بدمشق فقام إليه رجل فسأله عن قول النبى: أنا مدينة العلم وعلىّ بابها. فأطرق إسماعيل لحظة ثم رفع رأسه وقال: نعم، لا يعرف هذا الحديث عن النبى إلا من كان صدرًا فى الإسلام، إنما قال النبىُّ: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسُها وعمر حِيطانها وعثمان سقفها وعلىٌّ بابها. وقد سُر الحاضرون بذلك وطلبوا إلى إسماعيل أن يذكر لهم إسناده فاغتمّ لعجزه. وكذلك كانت الأحاديث تلفق لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة. وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرةً راعت المسلمين، لمنافاة الكثير منها لما فى كتاب الله. ولم تنجح المحاولات التى بُذلت لوقفها فى زمن الأمويين. فلما كانت الدولة العباسية، وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبىّ كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها، وكان بينها من التضارب وفيها من التهافت مالا يخطر بالبال.

جامعو الحديث فى عهد المأمون:

إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولَّى كتَّاب السيرة كتابتها. فقد عاش الواقدى وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيام المأمون. وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحلّ بهم. لذلك لم يطبقوا، بما يجب من الدقة، هذا المقياس الذى رُوى عن النبى عليه السلام من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن فما وافق القرآن فمن الرسول وما خالفه فليس عنه.

ولو أن هذا المقياس طبق بما يجب من دقة لتغير بعض ما كتب هؤلاء الأعلام. فالنقد العلمى على الطريقة الحديثة لا يختلف عن هذا المقياس فى شىء... لكن أحوال العصر أقنعت هؤلاء الأعلام أن يطبقوا هذا المقياس على طائفة مما كتبوا ثم لا يطبقونه على طائفة أخرى. وقد ورث

المتأخرون عن السلف هذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم. ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبَّقوا الحديث على سيرة النبىّ العربى فى جملتها وفى تفصيلها، دون استثناء لأى نبأ رُوى عنها لا يتفق مع ما ورد فى القرآن الكريم؛ فما لم يكن مما تجرى به سُنَّة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه وما كان مما تجرى به سُنَّة الكون مَحَّصوه، ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقينى، وتركوا ما لم يقم الدليل عليه.

وقد أخذ بهذا الرأى جماعة من كبار الأئمة من سلف المسلمين، وتابعهم عليه أئمة الإسلام إلى يومنا هذا. قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغىّ فى التعريف بهذا الكتاب ما يأتى: «لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا فى القرآن، وهى معجزة عقلية. وما أبدع قول البوصيرى:

لم يَمْتَحِنّا بما تعيا العقولُ به حرصًا علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِم»

وقال المرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار (فى عددها الذى صدر فى ٣ من مايو سنة ١٩٣٥)، ردًّا على الذين اعترضوا على كتابنا هذا، ما نصه: «أهمّ ما ينكره الأزهريون والطُّرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات. وقد حررتها فى كتاب الوحى المحمدى من جميع مناحيها ومطاويها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة؛ لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل، وبيَّنت سبب هذا الافتتان والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيره».

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى أول كتاب (الإسلام والنصرانية): «فالإسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى؛ فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يُخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية. وقد اتفق المسلمون، إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه، على أن الاعتقاد بالله مقدّم على الاعتقاد بالنبوَّات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله. فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل، ولا من الكتب المنزلة؛ فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله. وبأنه يجوز أن يُنزل كتابًا أو يرسل رسولا».

وأكبر ظنى أن الذين كتبوا السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأى، لولا أحوال العصر أيام المتقدّمين، ولولا أن ظن المتأخرون فى ذكر ما لم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات ما يزيد الناس إيمانًا على إيمانهم؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضرّ، ولو أنهم عاشوا إلى زماننا هذا، ورأوا

كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله، لالتزموا ما جاء به القرآن، ولقالوا بما قال به الغزالى ومحمد عبده والمراغىُّ وسائر المدققين من الأئمة. ولو أنهم عاشوا فى زماننا هذا، ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبًا وعقائد بدلا من أن تزيدها إيمانًا وتثبيتًا لكفاهم ذكر ما فى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة.

الروايات التى لا يقرها العقل والعلم:

أمّا ومضرّة الروايات التى لا يقرّها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعى جانب الدقة العلمية فى تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبى العربى، وتمهيدًا لما يجلوه البحث فى هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها إلى حضارتها الصحيحة.

القرآن والمعجزات:

ولو أننا عرَضنا كثيرًا من الأمور التى تروبها كتب السيرة وكتب الحديث على ما فى القرآن لَمَا وَسِعنا إلا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين. فقد كان أهل مكة يطلبون إلى النبىّ أن يجرى ربه على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يصدقوه، فنزل القرآن يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة. قال تعالى: ﴿وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تفجرَ لنا من الأرض ينْبُوعًا، أو تكونَ لك جَنَّةٌ من نخيل وعِنَب فتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَها تفجيرًا. أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا، أو تأْتىَ بالله والملائكة قَبيلًا. أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ. أو تَرْقَى فى السماء ولن نُؤْمِنَ لرُقيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابًا نَقْرَؤُهُ قل سبحان رَبِّى هل كنتُ إلَّا بَشَرًا رسولا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم لئنْ جاءَتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ الله وما يُشْعِرُكم أنَّهَا إذا جاءتْ لا يُؤْمِنون. ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤْمِنوا به أولَ مَرةٍ ونَذَرُهم فى طُغْيانهم يَعْمَهونَ. ولو أنَّنا نزَّلْنَا إليهم الملائكة وكلَّمَهُم الموتى وَحَشَرْنا عليهم كل شىءٍ قُبُلًا ما كانوا لِيُؤْمنوا إلَّا أن يشاءَ الله ولكنَّ أكثرهم يجهَلون﴾[2].

ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافةً، على اختلاف عصورهم، برسالة محمد ﷺ إلا القرآن الكريم. هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى مَنْ سبق محمدًا من الرسل. كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد ﷺ وما وجَّه إليه الخطاب فيه. وما ورد فى الكتاب عن النبىّ العربىّ لا يخالف سُنَّة الكون فى شىء.

---

(١) سورة الإسراء من الآيات ٩٠ إلى ٩٣.

(٢) سورة الأنعام الآيات من ١٠٩ إلى ١١١.

المعجزة الكبرى:

أمّا وذلك ما يجرى به كتاب الله وما يقتضيه حديث رسول الله، فأىّ داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبى العربى؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء فى القرآن عن معجزات مَنْ سبق محمدًا من الرسل، فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادّية لازم لكمال الرسالة فصدَّقوا ما رُوى منها وإن لم يرد فى القرآن، وظنوا أنها كلما ازداد عددها كانت أدلَّ على هذا الكمال وأدعى إلى أن يزداد الناس بالرسالة إيمانًا. ومقارنة النبى العربى بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق. فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أوّل رسول بعثه الله للناس كافةً ولم يبعثه إلى قومه وحدهم ليبين لهم. لذلك أراد الله أن تكون معجزة محمد ﷺ معجزة إنسانية عقلية، لا يستطيع الإنس والجن الإتيانَ بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. هذه المعجزة هى القرآن وهى أكبر المعجزات التى أذِن الله بها. وقد أراد جلَّ شأنه منها أن تُثبت رسالة نبيه بالحجة البينة والدليل الدامغ، وأراد لدينه أن ينتصر بفضل منه فى حياة رسوله، ليرى الناس فى انتصاره قوَّة سلطانه ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلةً إلى اقتناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم، لكانت وَلذكرها فى كتابه. لكن من الناس من لا يصدّقون إلا ما يقرّه العقل؛ لذلك كانت الوسيلة إلى إقناع الناس كافَّة برسالة محمد ﷺ أوثق ما تكون اتصالا بقلوبهم وعقولهم، فجعل الله القرآن، حجته البالغة، معجزة النبى الأمىّ إليهم، وجعل انتصار دينه وقوة الإيمان به آتيين من طريق الدليل اليقينىّ والاقتناع الصادق. والدين الذى يقوم على هذا الأساس أدعى إلى أن يؤمن الناس جميعًا به، على مر العصور واختلاف الأمم وتباين اللغات.

ولو أن أمَّة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين ولم تحتج إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لتؤمن، لَمَا طَعَن ذلك فى إيمانها ولا نقص من إسلامها. فما دام الوحى لم ينزل بها فلا جُناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محلّ تمحيص؛ فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به، وما لم يثبت بها فله فيه رأيه، ولا تثريب عليه. فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة؛ ولا يحتاج إلى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله. والشهادة برسالة محمد ﷺ، الذى دعا الناس بأمر ربه إلى هذا الإيمان وجنَّبهم ما يزيغ قلوبهم عنه، لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن، ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله إليه.

الإيمان عند أئمة المسلمين:

ولو أن أمَّة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن، لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين: رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثَّر فؤاده، بل هداه الله إلى الإيمان أول ما دُعى إليه، كما هدى أبا بكر، فآمن وصدَّق من غير تردُّد، وآخر لم يلتمس إيمانه فيما

وراء سُنَّة الكون من خوارق، بل التمسه فى خلق هذا الكون الفسيح الأرجاء الذى يقصُر تصوُّرنا دون إدراك حدوده فى الزمان أو فى المكان، وتجرى أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها ولا تبديل، فاهتدى من سُنَّة الله فى الكون إلى بارئه ومصوِّره. سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن، بل هما لا يفكران فى هذه الخوارق إلا على أنها من آيات فضل الله. ومثل هذا الإيمان يراه الكثيرون من أئمة المسلمين مثلًا أسمى فى الإيمان، ويذهب بعضهم كذلك إلى أن الإيمان الصحيح يجب ألّا يكون مصدره خوفًا من عقاب الله أو طمعًا فى ثوابه، بل يجب أن يكون إيمانًا خالصًا بالله وفناء تامًّا فيه. إليه يرجع الأمر كله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

المؤمنون فى حياة النبى ﷺ:

مثل الذين يؤمنون اليوم بالله ورسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان، كمثل الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبىّ العربىّ. فلم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحدًا منهم على أن يؤمن؛ بل كانت حجةُ الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه، وكانت حياة النبىّ، فى سموّها البالغ غاية السمو، هى التى دعت إلى الإيمان مَنْ آمن منهم. وإن كتب السيرة جميعًا لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ قبل الإسراء قد ارتدَّت عن إيمانها حين ذكر النبىّ أن الله أسرى به ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله. ولم يؤمن سُراقة بن جُعْشُم، لمَّا اتَّبع محمدًا ﷺ حين هجرته إلى المدينة ليأتى أهل مكة به حيًّا أو ميتًا طمعًا فى مالهم، على رغم ما روت كتب السيرة من معجزة الله فى سراقة وفى جواده. ولم يذكر التاريخ أن مشركًا آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات، كما آمن سَحَرةُ فرعون لمَّا لَقِفَتْ عصا موسى ما صنعوا.

الغرانيق وتبوك:

ثم إن ما ورد فى كتب السيرة والحديث عن المعجزات قد اختلف فيه أحيانًا. وقد كان على الرغم من ثبوته فى كتب الحديث موضع النقد أحيانًا أخرى وقد أشرنا إلى مسألة الغرانيق فى هذا التقديم وذكرناها مفصلة فى الكتاب. وقصة شق الصدر قد وقع الاختلاف فيها على ما روته حليمة ظئر النبى عنها لأمه، كما وقع على الزمن الذى حدثت فيه من سنّ محمد ﷺ. وما روت كتب السيرة وكتب الحديث عن قصة زيد وزينب مردود من أساسه، للأسباب التى أبديناها عند الكلام عن هذه القصة فى أثناء الكتاب. وقد وقع مثل هذا الاختلاف على ما حدث أثناء مسيرة جيش العُسْرة إلى تبُوك؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن مُعَاذ بن جَبَل أنّ النبى قال لمن سار معه إلى تبوك: إنكم ستأتون إن شاء الله غدًا عينَ تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يُضْحِى النهار: فمن جاءها منكم فلا يَمَسَّ من مائها شيئًا حتى آتى. فجئناها وقد سَبَقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تَبِضُّ بشىء من ماء. قال: فسألهما رسول الله ﷺ: هل مَسِستما من مائها شيئًا؟ قالا: نعم. فسبَّهما النبى ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع فى شىء. قال:

وغَسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر - أو قال غزير، شك أبو عليّ أيهما قال - حتى استقى الناس. ثم قال: يُوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنَانًا»[1].

فأما كتب السيرة فتروى قصة تبوك على صورة أخرى لا يرد فيها ذكر المعجزة، وإنما تجرى فيها الرواية على نحو غير ما ورد فى صحيح مسلم. من ذلك ما رواه عنها ابن هشام إذ قال:

«قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناسُ ولا ماء معهم شَكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء. قال ابن إسحاق: فحدَّثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد عن رجال من بنى عبد الأشهل، قال: قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم! والله إن كان الرجل لَيعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته ثم يلبَس بعضُهم بعضًا على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار؛ فلما كان من أمر الماء بالحجر ما كان ودعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شىء؟ قال سحابةٌ مارَّة».

وهذا الاختلاف فى الوقائع يجعل تأكيدها والقطع بها أمرًا غير ميسور فى نظر العلم، ويقتضى الذين يحصونها ألّا يقفوا عند القول بالراجح والمرجوح قولاً لا يُثبت إحدى الروايتين ولا ينفى الأخرى؛ وأقلُّ ما يجب عليهم إذا لم تثبت الرواية عندهم أن يُغفلوها؛ فإذا عثر غيرهم من بعدُ على الأدلة اليقينية عليها فذاك، وإلا بقيت غير ثابتة ثبوتًا علميًّا.

طريقتى فى البحث:

هذه هى الطريقة التى جريت عليها منذ بدأت هذا البحث فى حياة محمد ﷺ صاحب الرسالة الإسلامية. وأنا منذ اعتزمت القيام بهذه الدراسة إنما أردتها دراسة علميَّة على الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده. ذلك ما قلت فى تقديم هذا الكتاب، كما رجوت فى خاتمة طبعته الأولى أن أكون قد وفِّقت لتحقيق ما قصدت إليه، وأن يكون البحث قد تم بحثًا علميًّا لوجه الحقيقة العلمية وحدها، وأن أكون قد مهَّدْت به السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقًا، تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تلتمسها. وما أشك أن التعمُّق فى البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمنًا أن لا سبيل إلى تعليلها، ثم إذا مباحثُ علم النفس تفسِّرها وتجلوها واضحة للمتعقلين. وكلما وقعت الإنسانية على أسرار الكون الروحية والنفسية ازدادت صلة بالكون، وازدادت سعادة بهذه الصلة؛

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٠ طبعة الآستانة سنة ١٣٣٢ هـ

كما أنها ازدادت استمتاعًا بما فى الكون لمَّا ازدادت اتصالا بأسرار القوّة والحركة الكمينة فيه حين عرفت الكهربا والأثير.

من أجل ذلك كان خليقًا بكل من يتصدّى للبحث فى مثل هذا الموضوع أن يتوجَّه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم. فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلَّها محمد ﷺ على طريقه. وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذا لم يهتد الإنسان إلى هذه السبيل بمنطق عقله ونور قلبه، راضىَ النفس بهذا المنطق، منشرح الصدر إلى هذا النور؛ لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح. فالتفكير الذى لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيَّد مع ذلك بالطرائق العلمية، كثيرًا ما يعرِّض صاحبَه لأن يخطئ ويكبو، وكثيرًا ما ينأى لذلك به عن محجة الحق، فطبيعتنا الإنسانية تجعل تفكيرنا يتأثَّر بمزاجنا تأثرًا عظيمًا. وكثيرًا ما يختلف المتساوون علمًا فى تفكيرهم لغير سبب إلا اختلاف أمزجتهم مع إخلاصهم جميعًا فى القصد والغاية. فمن الناس العصبىُّ المزاج، الحاد التفكير، السريعُ إلى الاندفاع فيه. ومنهم الصوفىُّ النزعة، الرواقىُّ المزاج، الزاهد فى المادَّة وآثارها. ومنهم المادىُّ الهوى، المتأثر بماديته تأثرًا يحول بين تفكيره وبين ما يحسّه من قُوًى تحيط به هى التى تسيطر على المادة. وغير هؤلاء كثيرون تختلف أمزجتهم ويختلف لذلك نظرهم إلى الأمور وتقديرهم إياها. وهذا الاختلاف نعمة كبرى على الإنسانية فى ميادين الفن وفى الحياة العلمية، لكنه نقمة على العلم وعلى التفكير القائم على أساسه ابتغاء أمثال الحياة العُليا لخير الإنسانية جمعاء. ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتُها نِشْدَانَ الأمثال العليا من حقائق الحياة، ويجب لذلك أن يتجنب من يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المزاج. ولا سبيل إلى تجنبها إلا أن يتقيَّد الإنسان بالطريقة العلمية أدق التقيد، وألّا يجعل من العلم والبحوث العلمية فى التاريخ أو غير التاريخ مطيَّة لإثبات هوى من أهوائه أو نزوة من نزوات مزاجه.

بحوث المستشرقين:

ولقد تأثر كثير من المستشرقين فى بحوثهم التى صيغت صيغة العلم بأهواء أمزجتهم، وكذلك فعل كثيرون من كتاب المسلمين، وأعجب الأمر فى هؤلاء وأولئك أن يتخذ كلٌّ مما تزينه نزواتُ مزاج الآخر من الوقائع ما يقيمه أساسًا لكتابة يزعمها علمية ابتغى بها وجهَ الحق، فى حين هو يتأثر فيها بمزاجه وبهواه أشد التأثر. ودليل ذلك لو كلَّف نفسه بعض الجهد فى تمحيص ما كتب الآخر تمحيصًا نزيهًا لتداعت أمام نظره الوقائع التى أبدعها خيال صاحبه. ولو أنه فعل وتجرَّد جهد طاقته من هوى نفسه، وتحصَّن بقواعد العلم وطرائقه، لكانت كتابته أبقى فى النفوس أثرًا على خلاف الكتابة التى يدفع إليها الهوى. وقد حاولت أن أبيِّن شيئًا من أخطاء هؤلاء وأولئك، فى هذا التقديم للطبعة

الثانية، متوخيًا فى ذلك ما اقتضاه المقام من إيجاز غاية الإيجاز. ولعلّى وفقت لبعض ما قصدت إليه من نزاهة وإنصاف.

ليس من اليسير أن يقوم المستشرقون فى بحوثهم الإسلامية بكل هذه الدقة وهذا الإنصاف، مهما تحسُّن نيتهم ومهما يَتَحَرَّوا الدقة العلمية. فعسيرٌ عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وإن أحاطوا بعلومها. ثم إنهم متأثرون بالنصرانية الأوربية تأثرًا يجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة، ويجعل الأقلين المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال، فيخضعون فى بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم فى بحوثهم المسيحية أو فى بحوثهم الدينية بوجه عام. أقْصِدُ التأثر بهذا النضال الهدام. وهذا أمر لا يعاب به المستشرقون المنصفون؛ فلن يستطيع أحد من الناس أن يتحرر من حكم بيئته الزمانية والمكانية. لكنه يجعل بحوثهم فى الأمور الإسلامية تشوبها شوائب تنأى عن الحق ولو بمقدار. ومن شأن ذلك أن يُلقى على عاتق العلماء من أهل البلاد الإسلامية، سواء منهم المشتغلون بالعلوم الدينية والمشتغلون بغيرها من العلوم، هذا العبء الجليل العظيم؛ عبء القيام بهذه المباحث الإسلامية بدقة ونزاهة فى حدود الطريقة العلمية. فإذا هم فعلوا مستعينين بمعرفتهم أسرار اللغة العربية والحياة العربية، فسيكون لبحوثهم من الأثر أن تعدل بالمستشرقين، أو ببعضهم على الأقل، عن كثير من الآراء وتقنعهم بالنتائج التى وصل إليها علماء البلاد الإسلامية عن طمأنينة نفس وطيب خاطر.

المسلمون وهذه البحوث:

وليس الوصول إلى هذه النتائج بالأمر الهين؛ فهو يحتاج إلى جَلَد ومثابرة فى البحث والموازنة والتفكير الحرّ. لكنه ليس كذلك بالأمر المستحيل ولا بالأمر العسير. وهو بعد أمرٌ جليل الخطر عظيم الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل الإنسانية كلها. وعندى أن القيام به على وجه صالح يقتضى التفريق بين فترتين مختلفتين من تاريخ الإسلام: أولاهما من بدء الإسلام إلى مقتل عثمان. والثانية من مقتل عثمان إلى أن أقفل باب الاجتهاد؛ ففى الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تامًّا؛ لم تغيِّر منه روايات الاختلاف على الخلافة، ولا غيَّرت منه حروب الردّة ولا فتح المسلمين للبلاد التى فتحوا. أمَّا بعد مقتل عثمان فقد دبّ الخلاف بين المسلمين، وقامت الحروب الأهليّة بين علىّ ومعاوية واستمرّت الثورات، ظاهرة تارة خفية أخرى، ولعبت الأهواء السياسية دورًا خطيرًا فى الحياة الدينية نفسها. وحسبُ الإنسان، ليقدر هذا الخلاف، أن يوازن بين المبادئ التى ينطوى عليها خطاب أبى بكر بعد بيعته حين يقول: «أمَّا بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم، ولست بخيركم فإن أحسنتُ فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدعُ قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمَّهم

الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله؛ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» وخطاب المنصور العباسىّ بعد تسنُّمه ذروة العرش إذ يقول: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسُه على ماله، أعمل فيه بمشيئته، وأعطيه بإذنه؛ فقد جعلنى الله عليه قفلا، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى...». حَسْبُ الإنسان أن يوازن بين هذين الخطابين ليرى مدى التغير العظيم فى القواعد الأساسية للحياة الإسلامية فى أقل من قرنين، تغيُّرًا نقلها من الشورى بين المسلمين إلى الحكم المطلق المستمدّ من الحق المقدّس.

ولقد كانت هذه الثورات، وما أدّت إليه من انقلاب بعد آخر فى أُسُس الحكم سببَ ما آل إليه أمر الدولة الإسلامية من بعدُ من انحلال وتقهقر. ومع ازدهار الإسلام والحضارة الإسلامية قرنين كاملين بعد مقتل عثمان، ومع ما نشط إليه الإسلام من فتح الممالك وتدويخ الملوك على يد المغول وعلى يد السلاجقة بعد الانحلال الأوّل، فإن الفترة الأولى التى انتهت بمقتل عثمان هى التى تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الإسلامية العامة؛ وهى لذلك وحدها التى يمكن الاعتماد الثابت اليقينى على ما وقع فيها لمعرفة هذه القواعد الصحيحة. أمّا فيما بعد هذه الفترة، فإنه – على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين، وخاصّة أيام العباسيين – قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى فى كثير من الأحيان مع روح الإسلام، تحقيقًا لأغراض سياسية شعوبية فى أكثر أمرها. وقد كان الأعاجم وكان الذين تظاهروا بالإسلام من اليهود والنصارى هم الذين روَّجوا لهذه القواعد الجديدة، غير متورّعين فى تأييدها عن اختراع الأحاديث ونسبتها إلى النبى عليه السلام، ولا عن ادّعاء أشياء على الخلفاء الأولين لا تتفق مع سيرتهم ولا تلتئم مع مزاجهم.

هذه الفترة الأخيرة لا يمكن الاعتماد على ما دوّن فيها اعتمادًا علميًّا دون تمحيصه ونقده، أدق التمحيص والنقد، بغير تأثر بالأهواء أو بنزعات المزاج الذاتى. وأوّل ما يجب من ذلك أن نردّ مما وقع الخلاف عليه فيها كلّ ما لا يتفق مع القرآن، وإن نُسِب ما وقع عليه الخلاف إلى النبى العربى. أمّا صدر الإسلام الأول إلى مقتل الخليفة الثالث فيمكن الاعتماد على ما يروى مباشرةً عنه، ويمكن لذلك أن يتخذ أيضًا أساسًا لتمحيص ما جاء بعده. وإنى لأحسبنا إذا فعلنا هذا كله بدقة علمية، قديرين على أن نرسم صورةً صادقة من قواعد الإسلام الصحيحة ومن الحياة الإسلامية الأولى: هذه الحياة العقلية والروحية التى بلغت من القوّة والسموّ مبلغًا دفع عرب البادية من أهل شبه الجزيرة لينتشروا فى الأرض خلال بضعة عقود من السنين كى يقيموا فى مختلف الممالك أسمى المبادئ الإنسانية التى عرفها التاريخ. ولو أننا نجحنا فى هذا لكشفنا أمام الإنسانية أفقًا تصعد منه إلى معرفة أسرار الكون النفسيَّة والروحيَّة، وتتصل به عن طريق هذه المعرفة اتصالا حيًّ

للإنسانية أسباب نعمتها وسعادتها، كما أنها ازدادت استمتاعًا بما فى الكون حين ازدادت اتصالا بأسرار القوَّة والحركة الكمينة فيه بعد أن عرفت الكهربا والأثير. ولو أننا نجحنا فى هذا لكان للإسلام من الفضل على الإنسانية اليوم ما كان له فى الصدر الأوَّل، حين خرج به العرب من شبه الجزيرة لينشروا مبادئه السامية فى العالم كله.

وفى مقدّمة ما يجب علينا من ذلك، خدمة للحقيقة وللإنسانية ، أن نتعمق فى دراسة سيرة النبى العربى تعمّقًا يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها. والقرآن أصدق مرجع لهذه الدراسة؛ فهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل ولا تعلَق به الريبة، وهو الكتاب الذى بقى ثلاثة عشر قرنًا، وسيبقى أبد الدهر معجزة الحياة فى طهارة نصوصه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا له لَحَافِظُون﴾[1]، كما كان وسيبقى معجزة محمد ﷺ القائمة منذ أوحاه الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكل ما تعلَّق بسيرة محمد ﷺ يجب أن يعرض على القرآن، فما وافقه كان حقًّا، وما لم يوافقه لم يكن بحق. وقد حاولت من ذلك فى هذا البحث البدائى جهد طاقتى. فلما عدت إليه بعد طبعة هذا الكتاب الأولى شكرت لله توفيقه ورجوته أن يهيئ لمتابعة التعمق فيه تعمقًا علميًّا من يحبوه هدايته، ويده بتسديده.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصيرُ﴾

---

(١) سورة الحجر آية ٩.

تقديم الطبعة الثالثة*

لا تختلف هذه الطبعة الثالثة عن الطبعة الثانية فى شىء اللَّهم إلا فى بعض ألفاظ غُيِّرت أو نُقِّحت لمزيد من الدقَّة فى الضبط العربى، أو شدة فى الحرص على وضوح المقصود منها. وما حدث من ذلك قليل لا يكاد يحسه إلا من أراد الموازنة اللفظية بين الطبعتين. ولن يجد من يكلّف نفسه هذه المؤونة أى غناء فيها. ولم يكن الشعور بكمال الكتاب بعد طبعته الثانية هو الذى عدل بى عن تناول ما فيه بالتنقيح أو بالزيادة فى هذه الطبعة الثالثة. فأنا لا أفتأ أكرر ما قلته، فى مقدمة الطبعة الأولى، من أن هذا الكتاب لا يخرج عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية فى موضوعه الجليل. ولكننى فصَّلت كثيرًا مما يتصل بهذا الموضوع فى كتابى «فى منزل الوحى» على أثر أدائى فريضة الحج وسيرى فى أثر الرسول بالحجاز وتهامة؛ فلم يكن لى أن أعود لأجمل ها هنا ما فصّلته هناك. ثم إننى شغلت بعد ظهور «فى منزل الوحى» عن متابعة البحث فى سيرة الرسول وتعاليمه وسيرة أصحابه وخلفائه، مما كنت قد شُغِلت به فى السنوات الثمانى الأخيرة، فلم تتح لى الفرصة ولم يتح لى من فسحة الوقت ما أفصّل به ما أجملت فى خاتمة الطبعة الثانية. ولعل الله يوفقنى فأعود من بعدُ إلى هذا التفصيل فى كتاب مستقل. وأحسب القارئ يشاركنى فى هذا الدعاء بعد أن يتمَّ تلاوة المبحثين اللذين يكوّنان هذه الخاتمة.

وإنى ليسعدنى أن أختم هذا التقديم للطبعة الثالثة بشكر الله على ما لقى هذا الكتاب من تقدير الذين اطَّلعوا عليه من المسلمين وغير المسلمين، ومن تنويه طائفة من الكتَّاب والمؤلفين فى الشرق والغرب به فى تقديم كتبهم وفى تضاعيف هذه الكتب. وأكبر أملى فى وجهه الكريم أن ييسر لمتابعة هذا البحث من يصل به إلى غايته، ومن يخدم الحق بذلك خدمة كبرى.

---

* توالت طبعات هذا الكتاب بعد ذلك دون أى تغيير.